صعيدى فى أمريكا

رحلة الأمل والنجاح

الدكتور على محمد عبد الوهاب

أستاذ إدارة الأعمال

كلية التجارة - جامعة عين شمس





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشرَح لِى صَدرِى * ويَسر لىِ أَمرِى *
وَاحلُل عُقدَةً مِن لِسَانِى *
يَفقَهُوا قَولىِ * ﴾

صدق الله العظيم

{ سورة طه الآية ٢٥ - ٢٨ }

إهداء

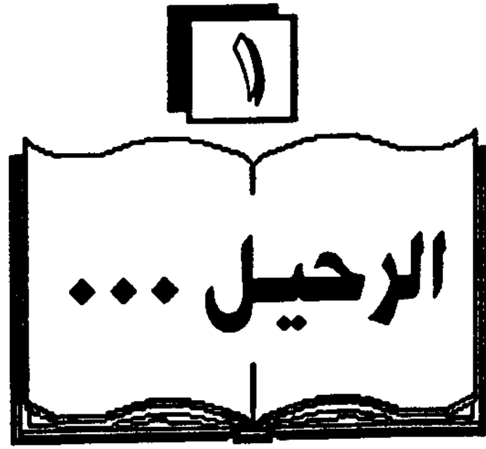
إلى :

والدي رحمه الله : النور الذي أضاء لي الطريق،

والدتي عافاها الله : الدفء الذي أحاط بهذا النور

إخوتي : رفاقي المخلصين على درب الحياة

المحتويات



﴿ ومن يهاجر فى الأرض يجد مراغما كثيرا وسعة ﴾

سورة النساء ١٠٠

☆ ☆ ☆

سافروا ففى السفر خمس فوائد
تفريج هـم وإكتساب معيشـة
وعلـم وآداب وصحبة ماجـد

☆ ☆ ☆

عدى السنين لغيبتى وتصبرى
ودعى الشهور فانهن قصـار

إنبثق فجر يوم جديد من أيام الصيف الحار فى مدينة القاهرة . والفتى مازال يتقلب فى فراشه قلقا . . إنه لم ينم فى ليلته هذه إلا قليلاً . كانت حاله كما قال الشاعر :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

ولكن الطيف الذى ألم بالفتى وملأ عليه خياله ، كان يختلف بالتأكيد عن ذلك الطيف الذى يقصده الشاعر ، إنه سيبدأ اليوم رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

تنفس الصبح . . وبدأ ينشر خيوطه البيضاء ، على استحياء ، لتبدد ظلمة الليل تدريجا . واختلط النور الأبيض - الرمادى - الوردى - بزقزقة العصافير تسبح بحمد ربها - خالقها ورازقها . . . تغنى ترنيمة الأمل . . تصفق بأجنحتها . . ترفرف سعيدة مرحة . . تزف الصباح الجديد . . . ليت الإنسان يقلد هذه الطيور الرقيقة ، فى بهجتها ، ونشاطها ، وتلقائيتها ، وتفاؤلها ، وصدق توكلها على الله .

امتلأ الجو نوراً ، وأشرقت أشعة الشمس الدافئة ، ونشط الناس ، دبت فيهم الحياة مرة أخرى . . بدأوا يستعدون للإنطلاق إلى أعمالهم وتجارتهم وأرزاقهم . . . باعة الصحف ، والعمال ، والباعة الجائلون ، والموظفون . . . رجالا ونساء ، كل إلى

وجهته . . . وامتـلأ الشارع بالحركة ، وتعالـت أصوات محركات السيارات ووسائل النقل العامة .

قام الفتى من مـكانه ، عليه أن يستعد هـو الآخر ، فسيخرج مبكرا قاصدا مطار القاهرة . . .

كانـت تتنـازعه أفكـار كثيـرة ، وعواطف شـتى ، ومشـاعر متناقضة . . . .

إنه سيـسافر اليـوم إلى أمريكـا . . . ذلك العالـم المجهول ، الكبـير ، المثير . إنـه يسمـع عـنه فقـط ، ويـرى عينة منـه فى السينما . . الأفلام الأمريكية الـتى كان يشاهدها فى دور العرض فى القاهرة ، الساحرة ، العامرة ، الـغاصة دائمًا بالناس تموج بهم الأماكن وكأنهم وسط طوفان ، والتى جاء إليها من « بلدهم » فى الصعيد - منـذ سنوات - ليدخل الجامعة ، ذلك الـصرح الشامخ الكبير الذى يجتمع فيه الأولاد والبنات سويا ، يجلسون عن قرب يستمعون إلى الأستاذ ويذهبون معًا فى وسائل النقل العام ، ومنها « الترام » - ذلك القـطار الصغير الذى كان الفتـى يحب ركوبه . والذى كان كثيراً مـا كانت تنفصل البكرة التى تـخرج من سقفه ، عن السلـك الكهربائى الضـخم الذى يمتد طولاً وعـرضًا فى سماء القاهرة . . فيتعطل القطار وترتبك حركة المرور . . .

لقد أحس الفتى يوم جاء إلى القاهرة بالوحدة والضياع . . وقليل من الخوف ، وفى نفس الوقت فرحة يكتنفها الغموض . . إنه سيقيم فيها هذه المرة ويذهب إلى الجامعة . . إنه اليوم شاب محترم مستقل أتم دراسته الثانوية وأصبح فى بداية سلم الرجولة . وكان قد زار القاهرة قبل ذلك بسنتين ، مع والده رحمه الله ، الذى كان يعرف القاهرة جيداً : ضواحيها ومعالمها وشوارعها وكثيراً من أسرارها . فقد قضى فيها زمنا طويلا أيام كان طالبا بالجامعة ، ثم معلما ومربيا فاضلا يغرس فى تلاميذه الخلق القويم والسلوك الطيب إلى جانب العلم الغزير .

وقد أسلم الفتى قياده لوالده عندما زار القاهرة أول مرة . . وأخذه أبوه من يده ، وكأنه مرشد سياحى للصبى الصغير . . اليوم نزور المتحف ، غداً حديقة الحيوان . . ثم زيارات للأقارب ، والمساجد ، ومختلف المعالم . . . كان الصبى سعيداً بزيارته هذه ، مبهوراً بما يرى ويسمع . ولكن الأيام مرت سريعة . . . كان لها مذاق خاص لذيذ ، ممتع نفسيا . . . يكاد الصبى يطير من الفرحة ، ولكنه سيعود مرة أخرى إلى البلد والمدرسة والكتاب والامتحانات . . . .

ولكنه حين جاء إلى القاهرة ليسكن فيها ، كان ينتابه شعور

آخر ، فإلى جانب القلق والترقب ، كان الفتى سعيداً بلاشك . . إنه سيستقل بنفسه ويحدد معالم طريقه . إنه اليوم « رجل » صغير . .

تركه أبوه لابن عمه . . . وأوصاه بالصبى خيراً ، ومضى حائر النفس دامع العين ، معلق القلب بولده ، داعيا له . . . هذه أول مرة يتركه وحيدا . ياترى هل سيتم مشواره . . ينجح . . يثبت ذاته . إنه ولده الأكبر ، وليس الأول ، فقد مات له أولاد كثيرون قبل هذا . . وصبر الأب ، واحتسبهم عند ربه ، وحمد واسترجع . . . يذكر الفتى والده ، نظراته ، دعاءه ، آهاته . . . لم يكن يفهم كثيراً منها . . ولكنه كان يحسها . . إن لها صدى فى قلبه وصدره وعينيه .

نفس الشعور الغامض الذى انتابه حين جاء للقاهرة ليدخل الجامعة ، يسيطر عليه مرة أخرى هذا الصباح . . . إنه سيذهب إلى أمريكا . . ولكن الفتى اليوم أكبر عمرا ، وأنضج شخصية ، وأوسع تجربة . . إنه يستطيع الآن أن يغامر ، يدخل إلى المجهول ، يتصيد الفرص ويحل مشكلاته . . . هل ياترى هذا حقيقى !!

ينظر الولد إلى أبيه . . يراه يتمزق حيرة . . وينظر إلى أمه ،

ويرى دموعها التى لاتتوقف .. وينظر إلى اخوته الصغار .. إنهم حائرون ، يبكون ، وربما لايفهمون الموقف ، أو لعلهم يفهمونه جيداً ويحسونه .. لقد خيم على الأسرة جميعا شعور عميق غريب .. إنه مزيج من الحزن والفرح ، الترقب والخوف .. الفخر .. والحيرة ..

ولم يكن هذا الشعور يسيطر على الأسرة فى ذلك الصباح فقط - يوم السفر . لقد كان يحدث يوميا ، لمدة عام على الأقل . منذ أن بدأ الفتى يعد العدة للرحيل . ولكنه كان يتصاعد يوما بعد يوم حتى بلغ ذروته الآن ، لقد بلغ السيل الزبى - كما يقول المثل العربى القديم .

كانت إدارة البعثات قد رشحته لبعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، يتم فيها دراساته العليا ويحصل على الدكتوراه ليعود أستاذا بالجامعة ..

كان يومها معيدا .. شابا .. منفتحا على الحياة .. معجبا بنفسه قليلا .. يحدوه الأمل ، ويحيطه إعجاب الآخرين ، أقارب وطلابا وأصدقاء وغرباء ...

وكانت إجراءات إدارة البعثات طويلة ، بطيئة ... وكانت

تجرى اتصـالاتها وتعـقد اتفاقـاتها مع الجـامعات الأمريـكية . . . إجراءات القبول والحجز والمسكن والتمويل . . .

لقد مـر الفتى بسلـسلة طويلـة من الخطوات . . كان بعـضها ضروريا والآخر عقـيما ، والبعض الثالث خلـيطا من سوء الإدارة وانخفاض وعى المـوظفين وضعف تدريبهم ، وإن كـانوا يحاولون جهدهم أداء الواجبات المناطة بهم .

وكانت أم الفـتى تتابع هذه الخطـوات ، بعينيها وقـلبها . . . ولسانها يلهج بالدعاء لابنها الـكبير . وربما لم يتوقف سيل الدموع من عيـنيها . لـم يكن الفتـى يهتم كثـيراً بهذه الـدموع . . . كان مشغـولا بأمره . . يجرى هنـا وهناك . . يتم الأوراق المطـلوبة ، يحضـر الإمتحانات الـتمهيديـة - فى اللغـة الإنجليزية ، وإخـتبار القدرات . يـحضر المقـابلات التى يـعقدها المـسئولون الأمـريكان والمصريون ، للطلبة المرشحين للبعثات .

يجـرى الفتى ، ويـعـود للـبيت ، ويـخبر أمـــه وأباه بمــا يحـدث . . . تبكى الأم . . ستغيـب عنا زمنا طويلا يا ولدى . . كيـف أصبر علـى فراقك . . . ينـظر الولـد لأبيه . . يراه جـلدا صبورا صـامدا . . . كان رحمـه الله كذلك دائمًا . . . كـالجبل ، كالهرم . . كان يحمل بين جنبية قلبا كبيراً حانيًا . وكان يهون على

زوجه ، ويقول لهـا : إصبرى . إنه ذاهب للعلـم .. للرقى .. سيعود دكتورا ، أستاذا ...

وكان الفتى يـفرح لجلد أبيه ، ويعجب بـصبره وهدوئه ... إلى أن إقترب يـوم الرحيل .. لم يبق إلا يوم أو إثـنان . وإشتد بكـاء الأم ، تصحبـك السلامـة يا ولدى . لنـا الله .. أنجح الله مسعاك يا بـنى . وينظر الولد لأبيه يـستمد منه العون ، ويـستلهم الصبـر ، ويأخذ منـه شحنة أخرى تـعينه علـى مواصلة الـسير ، والتغلـب على العـواطـف الكثيرة التى كـانت تثيرها أمـــه فـى نفسه ... وإذا بـالولد يجد أباه .. الـصابر الجلد .. يبـكى فى صمت . كان هنـاك خطان ، بل نهران من الدمـوع ... ينسابان فى صمت بليغ ... كانـت نظرات الأب حائرة ، وقواه خائرة . لقـد اقترب الـفراق .. سيسـافر الولـد .. ترى هل سيـراه مرة أخرى !!!

هنالك لم يحتمل الفتى الموقف .. هرول إلى غرفته ، وكأنه يهرب من نفســه .. وبكى كثيرا فى تلك اللحـظة ، وشعر بحب جارف لوالديه .. رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ...



لقد مـر بمراحل عديـدة حتى وصل إلـى نهاية الـطريق ، أو بدايتها . فقد انتهت كل الإجراءات ، ليبدأ السفر .

يذكر الفـتى ذلك الإمتحان الـعصيب الذى أخذه فـى الجامعة الأمريـكيـة بالـقاهـرة . أرادوا أن يقـيسـوا قدراتـه وصلاحـيتـه للدراسات العـليا . . . إنه إمتحان دولى مـقنن تبثه أمريكا لـلعالم جمـيعا . . يـأخـذه طلاب البـعثات فـى كل مـكان . . استـمر الإمتـحان خـمس سـاعـات . كان هنـاك طـالبـان - صعـيدى وسعودى . أخذا مـقعديهما ، ودخلـت سيدة أمريكيـة طويلة ، متقدمة فى العمر ، تبتسم قلـيلا ولكنها جادة . . كأنها كانت تقود سفيـنة أو فرقة حـربية . أليس الإمـتحان نوعـا من الحرب . . . النـزال . . تصارع فيـها الأسئلـة ، فإما أن تجـيب عنـها فتفـوز وتتقدم ، وإمـا أن تفشل فى الإجابة فـتظل مكانك أو تـتأخر عن الركب .

إستـلم الـفتـى ورقـة الإمتـحان . . وأخـذ يقـرأ الأسئـلة الإنجليزية . . ويجـيب قدر استطاعته ، كان يعصـر فكره وقلبه . كانت تتـراقص أمام عينيه تحـديات كثيرة . . العلـم الذى يريد أن يحصله فـى بلاد العام سام . . وجامعتـه التى تنتظره ليـعود إليها حاملا شهادتـه الكبيرة . . وأسرته التى تفـخر به . . وأقاربه . . والأصدقاء . . .

يبذل الفتى قصارى جهده ... يـفكر ويكتب .. ثم يقرأ ما كتب ، ويفكر مرة أخرى ، خمس ساعات مرت ثقيلة ، صعبة ، فيها تحد ، فيـها عذاب ممتع - إن كان للعذاب متـعة ... يا إلهى كيف تجتمع المتناقضات ... ولكنها الحياة .. مزيج كبير منها .. وانقضـت الساعات الخـمس ... وسلم الـفتى أوراق الإمتـحان للسيده الـتى أخذتها مبتسمـة .. وغمزت له بعينهـا .. إنها غمزة تشجيع ، فهمها الفتى بعد أن سافر إلى أمريكا وتعرف على عادات الأمريكان وأنماط سلوكهم .

ويذكر الفـتى كذلك إمتحانـا مماثلاً ... فى اللغة الإنجـليزية هــذه المرة .. خمـس ساعات أخـرى .. يكـاد الفتـى يلتـصق بكـرسيـه .. يكتـب ، يجيـب عـن أسئلـة مقـروءة ، وأخرى مسـموعة .. هـذا شريط ، وهذه ورقـة ... هذا حوار وتـلك أسئلة .. هذه قـصة وتلك قواعد اللغة ... أمـواج من الأسئلة تتلاطم مع بعضـها ، يرتطم بها الفتى ... يصارعـها .. يغلبها وتغلبه .. يركبها وتغرقـة ... يخرج من الامتحان وكأنه كان فى موقعـة حـربية .. ولـكنـه يحس بـالإنتصار ، يشعـر كأنه ازداد طولا ، يقف على أرض صلبة ، يمشى واثق الخطوات ..

كما يذكر الفـتى تلك المقابلة التى عقـدوها له فى المجمع ..

ذلك المبنى الذى يقف شامخا طويلا عريضا ، فى ميدان التحرير . . له مهابة ومكانة فى نفوس ذوى الحاجات . يرتاده آلاف من المواطنين كل يوم . . يحملون صنوفا من الأوراق وفنونا من المستندات - وكثير منها لالزوم لها - يركضون ويصعدون الدرج ويهبطونه . . هذه الأوراق للتوقيع ، وتلك للمراجعة . . للتسليم . . للأختام . . . ويختلط هذا الجمع من المواطنين بجمع آخر من الموظفين . وهؤلاء يستلمون الأوراق الممتدة إليهم ، من النافذة ، أو حول المكاتب . وهذا فراش يطوف بالأوراق وكأنه غزال رشيق ، يمرق بين حشود الناس ، يسرع مرة ويتلكأ أخرى . . . ويحركه « البقشيش » فى كل الأحوال . . هكذا البيروقراطية . . تخلق إلى جوارها وسطاء وأدعياء يحتالون لقضاء حاجات الناس التى هى من حقهم أن يقضوها . . . لماذا تتفشى الرشوة ؟ إن أحد الأسباب الجوهرية هو إجراءات العمل البطيئة ، القديمة ، التى لاتناسب العصر ، إنها مبنية على الحذر الشديد ، والشك ، والخوف من ارتكاب الأخطاء . ويضيق ذوو الحاجات بهذه الإجراءات ، فيبحثون عن طرق للتحايل عليها أو إختصارها ، أو يبحث لهم الموظفون عن « مخرج » منها . فتبرز الرشوة التى يقبلها ضعاف النفوس ، أو يتوقعونها ، أو يطلبونها جهرة !!

والحل . . . إعادة دراسة هذه الإجراءات وتخفيضها بالشكل الذى يضمن دقتها وسلامة المعاملات وفى نفس الوقت الإسراع بها . ألا يوجد الكمبيوتر الآن ؟ ومصر من أكثر الدول استخداما لأجهزته ! يبقى إذن الجزء الفكرى الذى يتعلق بأساليب تشغيله . . . وذلك حتى يتم قضاء حاجات الناس حفاظا على مصالحهم ووقتهم . . . ومعظمهم موظفون أو عاملون بجهات أخرى . وكلما تعطلت مصالحهم أو تأخرت ، تعطلت إنجازاتهم وتقهقرت إنتاجيتهم ، والتى تمس بدورها مصالح ناس آخرين . . . وهكذا تدور الحلقة . . تعطيل فى هذه المصلحة أو الديوان ، يتبعه تعطيل فى مصلحة أو ديوان آخر . . فينتشر ضعف الإنتاجية وينتاب الناس شعور بعدم الإنجاز ، فتقل حركة المجتمع ويقل تقدمه أو يزيد تأخره .

تمضى الساعات بالناس فى هذا المجمع . . . الموظفون منكبون على أوراقهم . . هذا الموظف يسلمها للمواطن كاملة . . يفرح الأخير ويمضى مسرعا وكأنه عثر على كنز . . ومواطن آخر ينتظر . . وثالث يتهالك على كرسى قديم فى الممر حيث لايقوى على الوقوف . . ورابع يتذمر . . وخامس يشكو . . وسادس يدعو . . . . إلى أن تنتهى ساعات العمل . فينتفض الموظفون مسرعين للخروج . . ويخرج المواطنون . . بعضهم سعيد والآخر

متذمر وثالث مترقب . . . وينقضى يوم . . ويهدأ المجمع . . إلى أن يجئ صباح يوم جديد . . .

ألف الفتى هذا المنظر ، لكثرة تردده على إدارة البعثات بالمجمع ، يسلم أوراقه ، ينتظر توجيهات ، يكمل إجراءاته . . . وكانت المقابلة التى عقدوها له ولعدد من المعيدين المرشحين للبعثات - ضمن هذه الإجراءات .

مضى الفتى نشيطا فى ذلك الصباح . وأخذ يسترجع بعض الكلمات الإنجليزية ، ويتخيل مشاهد قصيرة ، وطويلة ، متقطعة . . . لما سيحدث بينه وبين المسئول الأمريكى . ترى هل ستعجبه إجاباته . . . أى أسئلة سيوجهها له ؟ صعبة ، سهلة ، مفاجئة ، متصيدة للأخطاء (كم الساعة الآن . . كم عمرك . . لماذا تريد السفر . . ماذا تتوقع أن تجد فى أمريكا . . .)

دخل الفتى إلى مكان المقابلة بخطوات واثقة . . وإن كان يشوبها شىء من الخوف . كان يتطلع إلى المستقبل . ياترى هل سينجح ؟ هل سيقع إختيارهم عليه ؟ ووجد شخصين جالسين فى إنتظاره ، مدير البعثات المصرى ، والمندوب الأمريكى . استقبله الأخير بابتسامة ودعاه للجلوس . أما الأول فكان عابس الوجه

متحفزا . . ينظر بمزيج من الضيق والإحتقار وشىء من عدم الترحيب .

بدأ الأمريكى يسأل ، والفتى ينصت ، ويجيب . . . وانطلق لسان الفتى نسبيا . . وكان الأمريكى يشجعه على الحديث ، لم يسخر منه أو من لهجته الغريبة ، والتى كانت أقرب إلى اللهجة البريطانية كما تعلمها فى المدارس الابتدائية والثانوية . . . كان الأمريكى يهز رأسه موافقا ومشجعا ، يبتسم ، يصبر حتى يتم الفتى حديثه (كم عدد الطلاب فى كليتكم ؟ ماذا ستفعل بعد عودتك من أمريكا وحصولك على شهادتك ؟ . . .) أما مدير البعثات فكان ضائقا بالفتى . . نافد الصبر . . يسأل أسئلة «فوقية» يتعالى بها على الفتى . . والأخير يجيب ، واثقا ، هادئا بعض الشىء ، مترقبا ، راجيا أن يفوز فى هذا الإمتحان .

شد الأمريكى على يد الفتى وهو يودعه . . وحياه بابتسامة صديقة . أما المدير فقال للفتى « شوف لك طريقة تحسن بها لغتك » . ولعله قال ذلك لكل من دخل للمقابلة - قبل الفتى وبعده ، دون أن يفرق بين درجات الجودة فى لغتهم .

ذكريات كثيرة . . . قصة كفاح . . خاض الفتى خلالها كثيراً من التجارب وتخطى كثيراً من العقبات . لم يكن وحده فى

هذا النزال . . كان هناك أربعون معيدا ، خفضوا إلى خمسة وعشرين ، طبقا لنتائج الإختبارات والمقابلات ومختلف المقاييس . كان الفتى من هؤلاء الخمسة والعشرين الذين إختارتهم إدارة البعثات ليبتعثوا إلى الولايات المتحدة . وكانت الأخيرة ستتولى الإنفاق عليهم لمدة أربع سنوات كاملة ، تعليما وإقامة وإعاشة . . .

طاف بعض هذه الذكريات فى ذهن الفتى هذا الصباح الذى يشد فيه رحاله . والواقع أن الأحداث التى مر بها لم تكن تفارق خياله . . لقد كان يعيشها يوميا ، بحلوها ومرها ، سهلها وصعبها . وربما نسى الفتى الجهد الضخم الذى صاحب هذه الأحداث ، أو نسى ما أصابه فيها من تعب ، أو أن الترقب والتطلع للمستقبل شغل فكره الآن ، أو لعل لوعة فراق الأهل سيطرت على كل مشاعره . الأسرة كلها تلتف حوله . . تودعه بعيون ملهوفة وقلوب مشغوفة وألسنة تلهج بالدعاء وصدور تخفق بأمل العودة وإلتئام الشمل مرة أخرى .

ودع الفتى أمه التى لم تزل تبكى . . لم تجف دموعها بعد . . دعت له كثيراً ، وسألت الله له سلامة العودة ، تعلقت عيناها به وهو يغادر البيت . . لم تكن تريد أن تضيع لحظة واحدة

لاترى فيها ابنها . وهل يغيب الولد عن أمه حتى ولو لم يكن أمامها . . ! إنها تراه بعقلها وقلبها ووجدانها !!

وصل الفتى وأبوه وإخوته إلى مطار القاهرة . . كان الإرهاق يبدو على الجميع ، فربما لم يناموا ليلتهم من كثرة التفكير . عانق الوالد ولده . . سرت بينهما كهرباء الحب والحنان . . ذاب الفتى فى حضن أبيه وأحس بدفء العواطف التى يبثها أبوه . لقد كان دائمًا هكذا ، يتدفق حنانا وعطفا على أولاده . ولكن حنانه هذه المرة مشوب بالخوف والرجاء . . . ودع الفتى إخوته ومضى إلى الداخل . . إبتلعته صالة المطار . . ذاب فى الزحام . . إنخلع قلب الأب ، وكأنه تركه لولده يسافر معه .

إلتقى الفتى مع زميله الذى سيصحبه إلى أمريكا ، معيد فى كلية الزراعة . أنهى الإثنان إجراءات السفر وخرجا إلى أرض المطار . . . كانت الطائرة تربض هناك وكأنها وحش كبير ، استطاعوا ترويضه ، وعقلوه ريثما يتمكن الناس من ركوبه . وحش يخيل إليك أنه يريد أن ينفلت من عقاله وينطلق لايلوى على شىء . صعد الفتيان سلم الطائرة . . ودلفا إلى الداخل مسرعين . وكأن الوحش الكاسر إلتقمهما فى لحظة . قادتهما المضيفة ، جميلة ، رشيقة ، ذات ابتسامة عذبة . . . تبعها

الفتيـان كأنهما طفـلان يتبعان أمهمـا أو أختهما . أرشدتـهما إلى مقعـديهما . . مـازالت الإبتسامـة تعلو وجـهها المشـرق . جلس الفتـيان ، ربطا حزامـيهما . . هذه أول مرة يـركب فيها الـفتى - وربما زمـيله أيـضًا - هذا الـطائر الـضخم . قـرأ الفـتى وزميـله التـعليـمات المضـاءة فى سقـف الطائـرة - ربط الأحزمـة ، عدم التـدخين . . . بـدأت الطـائرة تـسيـر علـى الأرض ، إستـعدادا للإنطلاق ، حتـى إذا استجمعت قوتها عـلت فى الجو . . طارت بالفـتى تأخذه إلى مقـره الجديد . . المجهول . . الغـامض ، فى رحلـة الأمل والمستـقبل . ألـقى الفـتى برأسه عـلى مقـعده . . وأغمض عينيه قليلاً . . لقد إمـتلأت رأسه بأفكار كثيرة ، وأسئلة كثيرة ، وعلامات إستفهام متعددة . . .



طار الطائـر الضخم مليا . أحـس الفتى أنه مفـقود فى هذا العـالم ، ضـائع بين الـسمـاء والأرض والجبال والـبحـار . كان إحساســا غريبـا لذيـذا بعــض الشىء . وكـأن الطائر قـد أصابه التعب ، فآثر الهبوط ، وجثم على الأرض كأنه الصاعقة . وهبط الناس فـى مطار روما . . . غـادروا مسرعين كـأنهم ذباب صـغير نفضه الطـائر الكبير فتنـاثر من حوله . . . وسعى الفـتى وصديقه

مع الناس مسرعين . . كان عليهمـا أن يركبا طائرة أخرى تأخذهما إلى نيويورك .

وبدأت رحلة أخـرى . . طويلة . . شاقة . . أكثـر من عشر ساعات ، قضـاها الفتى فى حديـث مع صديقه ، عن أحـوالهما والأحلام التى تدور فى رأسـيهما . . كما شاهدا فيلـما أمريكيا - ياه . . سيـنما فى السـماء !! وتناولا وجبات الـغذاء التى قدمـتها المضيفات الرشيقات الصديقات .

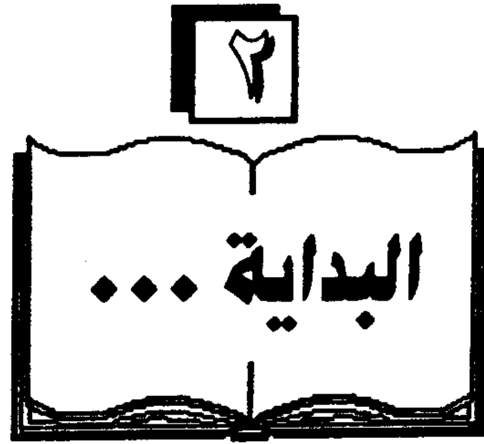
وحط الطائر الضخم مرة أخرى . . فى مطار نيويورك . هبط الفـتى وصـديقـه ، وسط حشـد هائـل من الـناس ، يـروحون ويجيئون . . المكان يموج بالناس من كل جنس ولون . . . وكلهم غرباء . . . كـل مشغول بأمره . . تـلفـت الفتـيان حـولهمـا فـى حيرة . . أحـس الفتى بالخـوف قليلا . . تـفقدا الرجل المـكلف بانتظارهما ، مندوب المعهد الدولى للتعليم . ماذا لو لم يظهر هذا المندوب ! ماذا يفعل هذان الغريبـان !! إن كل واحد منهما يحمل فى جيبـه سبعة وأربعين دولاراً فـقط ، إلى جانب الآمال الـكبار التى يحملانها فى رأسيهما وقلبيهما .

وعثر عـليهمـا المندوب ، ورحب بـهما ، واصطـحبهمـا إلى خارج المطار . وقادهما إلى تاكسـى أوصى سائقه أن يأخذهما إلى

الفنـدق الذى سيقـضيان فيـه ليلتهـما . ومضى الـتاكسى مـسرعا لايلوى على شـىء . . . السيارات كلها مسرعة ، يـخيل إليك أن الطرقات تتحرك بحركة السيارات التى تمرق عليها كالسهام . . . لم ير الفـتيان كثـيراً مـن المديـنة . فقـد حـــل الظلام . . والـــسيارة سريعـــة . . . والبال مشـغـول . . والأجســـام لقيت من ســفرها نصبا . .

قضى الـفتى وزميـله ليلـتهما الأولـى فى بلاد الغـربة - فى نيويورك . بحثـا قليلا فى قنوات التلفزيون الـضخم الذى يربض فى غرفة الفنـدق الذى نزلا فيه . كان عليهما أن يذهـبا مبكرا فى الصبـاح التـالى إلى مـطار محـلى ، ليـسافرا إلـى مقر الـدراسة التمهيدية ، ليتعلما اللغة والعادات الأمريكية الجديدة . إنها التهيئة المبـدئية - الذهـنية والـنفسيـة والإجتماعـية التـى تسبق الـدراسة الأكاديمية المتخصصة .

لقد دقت ساعة الجهاد . . وبدأت إشارة الجد والعمل .



﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾

سورة الفتح ١

☆ ☆ ☆

أول الغيث قطرة ثم ينهمر

☆ ☆ ☆

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة . . .

إستقـر الفتى فى مكـانه الجديد ، فى المقـر الداخلى للطـلبة بإحدى الجامعات . كـان عليه أن يقضى حوالى الشـهر - ما تبقى من الـصيف - فى بـرنامج مكـثف للغـة الإنجليزيـة تنظمـه هذه الجامعة الصغيرة للطلبة الأجانب .

كانت المـدينة التـى حل بها هادئـة ، جميلـة ، خضراء . . . أقرب إلى القرية ، أهم ما يميزها النظافة واللمعان . كل شىء فيها له بريـق ، كأنه مرسـوم بعناية . تـلمس فى هـذه المدينة - أيـنما توجهت - لـيس فقط دقة الهـندسة ، ولكن أيضًا سـلامة الذوق وحسن الترتيب وجمال الطراز .

أقبل الفتى عـلى دراسة اللغة بهمة وأمل . كـان يبدو سعيدا نشيطـا . وقد أعجب بمدرس اللغـة الإنجليزية كثـيراً . كان رجلا هادئا صـبورا ، يحب تلامـيذه ، يقدم لهـم اللغة فى إطـار سهل تدريجى ، مع ابتسامة عريضـة ، تبث فى هؤلاء التلاميذ الأمل ، وتنمى فيهم الرغبة والإقبال على التعلم .

كانت قاعة الدرس تحفل بالطلاب من كل أنحاء العالم ، ومن مختلف المهن - طبيب وزراعى ومهندس وأكاديمى . . . من البلاد العربية ، والهند ، وأمريكا الجنوبية ، وأفريقيا . . . جاءوا جميعا إلى أمريـكا - تلك الـبوتقة الـكبيرة الـتى تنصـهر فيهـا الأجناس

واللغـات والعادات ، وتلتـقى فيها الأفـكار الجديدة ، الغـريبة ، الخلاقة ، تدفع بها دائمًا إلى الأمام وتخلق لها كثيراً من المشكلات أيضًا .

اندمج الفتى فى مـجتمعه الجديد بسهولة ويسـر . كان يلتقى مع زملائه فى الصـباح فى المطعم الكبير الذى يتـناول فيه الطلاب طعام الإفطار ، ثم يهرول معهم إلى قاعات الدرس ينهل من اللغة الإنجليـزية ما يستطـيع . . من خلال حديث هـذا المدرس الجاد ، والتسـجيلات التـى ينصت إلـيها فى مـختبر الـلغة ، وتوجـيهات مدرس النطق والصوتيات ، والأحاديث الـتى يتبادلها مع الطلاب والأساتذة والمشرفـين . وكان هؤلاء المشرفون قد وضعـوا فى بهو الجامعة لافتة كبيرة تقول « تكلـموا الإنجليزية فقط » ، حتى تلتزم جميع الأجناس بلغة واحدة . . غـير أن ذلك لم يمنع الطلاب من استخدام لغاتهم الأصلية بين الحين والآخر . فكنت تسمع فى هذا البهو لغطـا كثيراً . . . خليط من لغات العالـم . وكأنك فى مؤتمر صغير يـجمع المتكلمـين بلغات مختلـفة . ثم يقضى الفـتى مساءه يتجول فى شوارع المدينة الصغيـرة ، وكأنه يريد أن يتعرف عليها . ويجلس مع الأصدقاء - العرب والأجـانب - فى الحدائق الصغيرة المحيطة بالجامعة ، يسمرون ويتأملون ويحلمون .

ولم يقتصر الأمر على تعلم اللـغة . فقد نظمت لهم الجامعة برنـامجـا حافلا بـالرحـلات والزيـارات الترفـيهـية والتـعلـيمـية والإجتماعية .

فأخـذوا الطلاب الأجـانب جمـيعـا إلى البـيت الأبيـض فى واشنطن العاصـمة . وكانت فرحة الفتى رائعة بـهذه الزيارة . هنا يقع مكتـب الرئيس . . هنا يستـقبل ضيوفه . . هنا يـقضى وقت فراغه فى الحديقة المليئة بالزهور . . هنا تدار شئون العالم . سأل أحد الـطلاب واحدا مـن المدرسين الذيـن اصطحـبوهم فـى هذه الرحلة : هل يمكن أن نقابل الرئيس ؟ فأجاب المدرس بهدوء : لو كان لديه وقت لأسعده ذلك . .

كانـت الرحلـة ممتعـة . . مثيـرة . . إن كل مبـنى تدخـله ، الكابيتـول ، مسلة واشنطن . . . يثـير فى نفسك مشاعـر كثيرة ، ويثير فى رأسك أسئلة متنوعة . . .

يذكر الفتى كيف ازدحم رأسه بـالأفكار عندما أخذه أبوه قبل الجامعة ، إلى قلعة صلاح الديـن ، ومساجد القاهرة ، والمتاحف والآثار . إن للـتاريخ عطرا خـاصا ومذاقا غـريبا . . . هنا تـصنع الأحداث . . هنا أصـاب القادة وأخطاؤا . . هنـا اتخذت قرارات وجهت مسار الـعالم . إن بداية التعلم أن تدرس الـتاريخ . . نبه

لذلك إبن خلدون منذ زمن بعيد . فدراسة التاريخ تعمق نظرتك للأمور ، وتجعلك تربط الأحداث ببعضها وتفحص تراكماتها ، وتتفهم علاقة الأسباب بالنتائج ، فتستشرف المستقبل بضوء أوضح ، وتبنى قراراتك على أساس سليم .

ثم كانت زيارة أخرى لمتحف الفنون بواشنطن . انظر إلى الخبرة التعليمية العميقة التى يراد إنشاؤها فى عقول الطلاب، إن الأمر لايقتصر على العلم المتخصص فقط ، يجب أن تعنى بجانب الأحاسيس والمشاعر ، الذوق ، الجانب الجمالى . إن بعض المواد التى يدرسونها فى الجامعات - كما إكتشف الفتى بعد ذلك - تتضمن الموسيقى ، والرسم ، والقراءة السريعة ، والتذوق الفنى . . . وهى مواد مفتوحة لجميع الطلاب على اختلاف تخصصاتهم واتجاهاتهم العلمية - من مهندسين وكيميائيين ومحاسبين . إن الشخصية الناضجة تضم بين جنباتها تشكيلة من الإهتمامات ، إلى جانب التخصص العلمى أو البؤرة الرئيسية للمهنة .

رحم الله عباس العقاد . . . لقد كان مهتما بالأدب ، والشعر ، والفلك ، والفضاء . . كان مدرسة بليغة اكتشفها الفتى عندما كان أبوه يوصيه منذ الصغر بالقراءة المتنوعة ، باللغة العربية

والإنجليـزية . وقـد أطـاع الفتـى أباه وعرف طريـقه إلى المكـتبة مبكرا . كانت مكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بالصعيد - إلى جانب مكتبـة أبيه العامرة التـى اقتنى فيها أبـوه كتبا كثيرة خـلال مراحله التعليمية حتى الجامعة - تزخر بأمهات الكتب التى أقبل عليها يقرأ منها ما استطاع ، وما مكنه عقله الصغير أن يستوعب ، وما اتسع له وقته . واكتشف فى رحلته مع الكتب كثيرًا من العمالقة العرب والمـصريـين . تـعـرف علـى المـبرد مـن خـلال « الـكامـل » ، والأصفهانى من أغانيه ، والجـاحظ من بخلائه . . . . قرأ قصص الأطفال ونـوادر جحا وكلـيلة ودمنـة واستمتـع بقراءتهـا عشرات المرات . . . وقرأ أكثـر لطه حسين والحكـيم وتيمور وباكـثير وأبو حديد . . . . وأعجب بهؤلاء وأولئك وشعر بالحاجة إلى مزيد من المعرفة .

ثم كـانت زيـارة أخرى لإحـدى العـائلات الأمـريكـية الـتى استضافت الفتى وطالبا آخر سعـوديا . كانت عائلة ريفية ، تعيش فى إحدى الـقرى المجاورة للـمدينة التـى كان الفتى يـتلقى فـيها دراستـه التمهـيدية . . . وكانـت تتكون مـن الأب والأم وثلاث بنات . أثار الفتى ذلك الأسلوب البسيط الذى استقبلت به العائلة ضيفيهـا - رحبت بهما ، أطعمـتهما ، أعدتهما ضـمن أفرادها . خصصت العائلـة لهما غرفة مستقلة ، ولكن المنـزل كله كان يتسع

لهما ، يتجولان بين أرجائه . كان منزلا ريفيا بسيطا تحوطه حديقة وملعب صغير ويجاوره مخزن . تبادل الجميع أحاديث ودية . تعجب الفتى من تعليق الأب على ذريته . قال كنا نود أن نرزق ولدا . . ولكننا أنجبنا بنات . . . نفس الجملة يقولها فلاح مصرى ، فى قلب الصعيد أو قرى الوجه البحرى . وتذكر الفتى أغنية قديمة من أهازيج التراث الشعبى ، كانت النسوة يرددنها عندما تضع إحداهن مولودا جديدًا : « لما قالوا دا ولد . . . ضهرى انشد وإتسند » . سبحان الله يخلق ما يشاء ويختار .

وأمضى الفتى وزميله عطلة الأسبوع مع هذه العائلة ، فى مزرعتهما الصغيرة وبيتهما الريفى الجميل . . . مع الخضرة الرائعة التى وهبها الله لهذه البقعة من الأرض ، وتحت السماء الزرقاء الصافية . كانت عطلة رائعة . . جدد الفتى خلالها نشاطه ، وقوى فيها أمله ، وعمق رغبته فى الإفادة من هذه الحياة الجديدة . . الغنية . . المثيرة . . الحافلة دائمًا بالجديد .

مضت الأيام والأسابيع . . كان الصيف فى نهايته ، وستبدأ الجامعات والمدارس موسمها الدراسى . مر الشهر سريعا ، سعيدا . . لم يحس الفتى بوحشة رغم اختلاف الزمان والمكان والوجوه . . كانت الأنشطة المتنوعة لبرنامج التعريف تشغل وقته

وتدمجه فى المجتمع الجديد . وأما دروس اللغة الإنجليزية فقد كانت أقرب إلى الترفيه منها إلى التعليم الرسمى الجاف . كان الموجهون يقدمون اللغة فى جرعات سهلة منظمة متتابعة . . . ويتنقلون من السهل إلى الصعب ، من المعروف إلى المجهول ، برشاقة ومهارة . . . يضربون أمثلة ، يوضحون ما يقولون ، ويعيدون ويكررون ، ويشجعون الدارسين ويصبرون على أخطائهم ، والتى كانت كثيرة جدا عند بعضهم - كالأمريكيين اللاتينيين مثلا . وقد سعد الفتى كثيراً بتعليق أستاذه بأن لغته ممتازة وأنه سيتقنها قريبًا .

ثم سافر الفتى بعد ذلك إلى مدينة واشنطن ليكمل ما تبقى من فترة التعريف والتأهيل . إنها العاصمة هذه المرة ، المدينة الكبيرة التى قرأ وسمع عنها وزارها فى رحلة سابقة خاطفة . . . لقد عاد إلى الزحام مرة أخرى ، إلى صخب المدينة ، إلى الأسواق والمحلات التجارية الكبيرة ، بعد أن مكث شهرا فى هدوء المدينة الصغيرة .

بدأ ينخرط مرة أخرى فى برنامج التعريف . . . قابل عدداً كبيراً من الناس ، من دول مختلفة ، شرقية وغربية ، إندمج فى فصول اللغة ومختبراتها . وكان يحب ذلك اللقاء الأسبوعى الذى

تشرح فيه المدرسة تاريخ أمريكا . لقد أعجب بهذه المدرسة إعجابا كبيرًا . كانت ذات وجه صبوح . . تحس بـالراحة حين تقع عينك عليه ، وكأنه يحييك . فإذا تحدثت معها أحسست أنك تتحدث مع صديق قديم ، تعرفه منذ زمن . كانت إبـتسامتها عريضة ، ترحب بك ، تحتويك ، تزيل إحساسك بالغربة . وكأنها نسمة هواء عليل يلفح وجهك ويداعب نفسك . كانت تلقى معلومات التاريخ على الحاضرين وكأنها تحكى قصة مسلية تثير إنتباهك .

لقد أعادت هذه السيدة الشابة إلـى ذهن الفتى مدرسا للتاريخ تتلمـــذ عليه عنــدما كان فـى المرحـلة الإعدادية فى قلــب صعيد مصــر . كان هذا المدرس يـقص التاريـخ فى لغة سـهلة شيـقة . يتنقل بين الأحداث وكأنه مرشد سـياحى يقودك إلى الأماكن التى حــدثت فـيهـا الوقـائــع . . الهـزائم والإنـتصـارات ، المكـائد والمؤامرات ، البطولات والتضحيات . . . ولاتكاد تحس بالملل من تكـرار هذه الأحداث حتـى يزيل أسـلوبه الشـيق ولغـته السهـلة وحديثه الممتع مـا قد تسرب إليك من فتور ، ويحل محـله انتباها ورغبة فى الـتعرف على بقـية الأحداث وتسلسـلها والنتائـج التى إنتهى إليها .

كانت المدرسة الأمـريكية الشابة تشبه ذلـك المدرس - كلاهما

يتبع نفس الأسلوب البداجوجى . ولكن الأولى كانت تتميز بذلك الجمال الهادئ والإبتسامة الرائعة ، والقلب الذى يخيل إليك أنه يريد أن يقفز من الضلوع يرحب بك ويأخذ بيدك ويجيب عن أسئلتك .



ورغم أن الفتى كان يفكر فى أهله دائمًا ، يتذكر أمه وأباه وإخوته . . . إلا أنه لم يكن يحس مطلقا بالوحدة ، أو الوحشة أو الرغبة فى العودة حالا إلى الوطن ، أو ما يسمى باللغة الإنجليزية مرض الحنين للوطن كان يجتر ذكرياته - المثيرة المتنوعة فى طفولته وصباه - ويتخذ منها زادا يعينه فى بعده وقاعدة انطلاق لمستقبله . حتى كان ذلك اليوم الذى تلقى فيه أول كتاب من أبيه . أمسك الفتى بالخطاب فى لهفة وشوق . . . دق قلبه كثيراً ، وكأنه يريد أن يثب داخل الكتاب يقرؤه ، يلتهمه ، يرتوى منه .

فض الفتى الخطاب بيد مرتعشة ، وبدأ يقرأ ما كتب أبوه . ومرت عيناه على السطور مسرعة . . وبدأت دموعة تنساب على خدية . . قطرة قطرة فى بادئ الأمر . ثم فاضت العينان بالدموع ، حتى اختلطت السطور والكلمات أمامه . . وكان

نحيبه يرتفـع كلما قرأ ما كتبه أبوه الأديب البـليغ : « سافرت إلى الصعيــد يا ولـدى بعـد سـفرك لأمريكا . . . وعـدت بعــد شهر إلى القاهرة ، ولم أجدك فيها ، وكـان عهدى أن ألقاك بها تملؤها علىّ . . . كنـا نحس بأننا نحن الـصغار وأنت الكبيـر . . . اللهم حـنانـك ولطـفك . . . كـيـف حالـك يا ولـدى . . . أوصيـك بالاستـقامة والصــلاة . . . استمر فـى مهمتـك التى سافـرت من أجلها حتى تتمها . . . » .

قرأ الفـتى كتاب أبيه مـرات . . . وبكى بصوت مـسموع . . وذرع غرفته جيـئة وذهابا . . . . كانت جدران الغرفة كـأنها سجن صغير . . ضيق . . يـكسر ضلوعة ويحبس قلـبه . . إنه يريد أن يخرج من هذا الضيق ، يطير الآن ويلقى أباه ويذوب فى أحضانه ويقول له لن أتـركك أبدا . وثارت فى ذهن الفتى أفـكار كثيرة ، متناقضة ، متشابكة . . . ولـم يكد الليل يسدل أستاره ، حتى أسر الفتى فى نفسه أمرا . . . لقد قرر أن يعود إلى مصر مرة أخرى .

ربـاه . . هكـذا سريـعا ؟ مـاذا يقـول لإدارة البـعثـات . . للمسئول الأمريكى بالمعهد الدولى الذى يشرف على دراسته . ماذا يقول لـلمسئولين بـجامعته ، لأساتـذته ، لزملائه ؟ أهكـذا يعود سريعا . . بعد كل العذاب الذى تعرض له ، وضياع عام كامل من

عمره فــى إجراءات طويلة !! إن كـل هذا لايهم .. فأبـوه شيخ كبيـر . وقد أحس الفتى بـلوعة هذا الأب ، الذى بـرح به الحزن وألم الـفراق ، بعـد أن بدأ يـشعر بـالأمان ، بعـد أن كبـر ولده وتخرج فى الجامعة وعمل معيدا فيها ... لقد اطمئن الأب ورأى أنه يجنى ثمار ما غرس ويستمتع بنتائج عمله ... لقد جاهد كثيرا وسعـى دون كلل أو ملـل ليربى أولاده ويـعلمـهم .. لم يـخل عليهم بـشىء ... وها هو الآن بعد أن ركن إلى الـراحة قليلاً ، يتركه إبنه الكبير .! لاشك أنه أمر شاق .

وهل كل الأساتـذة تعلموا فى أمريـكا ؟ هل يحملون جـميعا شهادات دكتـوراه أمريكية ؟ لا .. لا .. لماذا لايستـأنف دراسته العليا فى مصر . لقد خطا خطوات جادة فى هذا السبيل ، واختار بالفعل موضوعا لرسالة الماجستـير ، كـان يستهويه فى ذلك الوقت « العـلاقات الإنسانـية فى مجـتمع المصـنع الحديث » ، مـع أحد أساتذتـه الذين أحبهـم وأحبوه وتأثـر بهم فى قاعـات المحاضرات كثيـراً ، نظراً لرقة شخـصيته وعذوبـة حديثه وأدبه الجم وعـلمه النـافع ... نعـم .. نعم .. ليـعد لهـذا الأستاذ مـرة أخرى ، ويستمـر فى رسالة الماجستـير تحت إشرافه .. المهم أن يـبقى إلى جوار أبيه . وإرتاح الـفتى لهذه الفكرة .. وأغمض عـينية وغاب فى سكون الليل وسكينته .

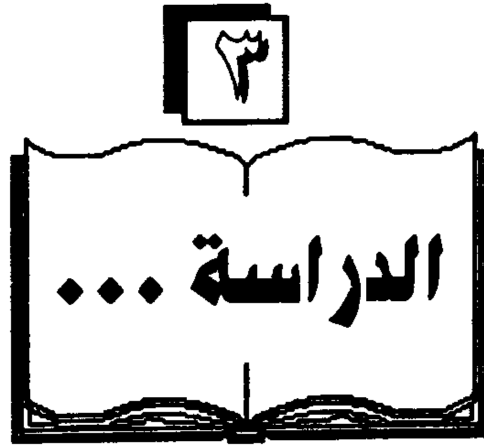
نام الفتى أو لم ينم . . وعندما قام من فراشه فى الصباح . . أحس بهدوء غريب ، لقد إستقرت نفسه قليلاً وانتظم تفكيره . . وكأن الليل قد غسل جرحه ، فانحسرت آلامه ، وبدأ يعيد النظر فى أمر عودته . . ووجد يده تمتد إلى ورق وقلم . وكتب لأبيه يشكره ويدعو له ويجدد معه العهد .

ولعل هذا الكتاب كان دافعا له على العمل ، مزيد من الجهد ، والمثابرة . لقد كان أبوه - رحمه الله - دائمًا يدفعه للأمام ، يشجعه ، يرغبه فى القراءة والبحث . . يعدد له مزايا العلم . وكان يسميه عدة مسميات ، فمرة يصفه بالسلاح ، ومرة برأس المال . . ألا يستخدمون هذه اللفظة فى أمريكا الآن ! رأس مال المعرفة ، رأس المال الذكى . !! كان يذاكر مع ابنه ، يقرأ معه ، يراجع دروسه . لقد كان دائمًا أستاذا له ، مرشدا وناصحا ومقوما ومعينا . وبعد أن تخرج الإبن فى الجامعة ، ظل الأب إلى جواره . . يدفعه ، يرشده . . . كان يأمره بالإستقامة وتقوى الله . . . كان يحكى له عن حياته الماضية ، ينقل له خبرته ، يشرح له نظراته فى الحياة والعلاقات والمعاملات . كان يحب أولاده حبا جارفا . كان كالصخرة القوية تسند إليها ظهرك فتحميك . . . كم يفتقد الإبن أباه !! ولكن هكذا الحياة ، التقاء وفراق ، ظعن وإقامة ، سعادة وآلام . . ولابد للإنسان أن يسعى

ويسافر ويهاجر إذا لزم الأمر . ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ صدق الله العظيم .



دار الفصل الدراسى دورته ، وأتم الفتى دراسته التمهيدية والتعريفية . . وحصل من اللغة الإنجليزية ما يؤهله الآن للدراسة العلمية المتخصصة . ذهب الفتى إلى جامعته الجديدة . . استقبلته مرشدة الطلاب الأجانب . . رحبت به . . تمنت له طيب الإقامة ونجاح المسعى . عرفته بقسيس كاثوليكى . . دعاه الأخير للعشاء فى كنيسة الجامعة حيث يقيم . ذهب الفتى إلى مقر القسيس . وأقبل عليه هذا مرحبا . جلسا إلى مائدة الطعام . قال القس للفتى : لقد أخبرت الطاهية أن شابا مسلما سيتناول عشاءه معنا الليلة ، فلا تقدمى لحم الخنزير . تحدث القس طويلاً والفتى يسمع . . تكلم عن الحب الذى يجمع الناس . . سأل الفتى عن أحواله وبعثته الدراسية وتمنى له التوفيق . شكره الفتى ، وإفترق الإثنان وقد أصبحا صديقين . كان الفتى يقابله بعد ذلك فى الجامعة ويتبادل معه حديثا وديا ويطمئن الإثنان على أخبار بعضهما .



إذا داع دعاك لرشد أمر

فلـب ولايفتك له اتباع

☆ ☆ ☆

قم للمعلم وفيه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

وانتظم الفتـى فى فصوله الدراسية الجديدة ... المتخصصة هذه المرة . إنها تختـلف كثيراً عن فصول اللغة الإنجـليزية . فهذه تفيض بالمـتعة والإثارة ، أما الفصول الـعلمية فتزخر بـالصعوبات وتمتلأ بالواجـبات ، والإختبارات ، والمناظرات ، والمـناقشات مع الأساتذه والزملاء .

أحس الفتـى بالرهبة أول الأمر .. إنـه يتابع الأستاذ ويـفهم كثيـرا مما يقول ، ولكنـه قلق ، هل سيـستمر ، وينافـس أقرانه ! وخاصة عـندما كان الأسـتاذ يوجه إلـى تلاميذه أسـئلة ، فيـهب الطلاب الأمـريكيون لـلإجـابة . كـانـوا يتـكلمـــون الإنجليـزية بطلاقة .. شيء طبيـعى .. أو لايتكلمونها كما كان يـسخر منهم مؤلف روايـة سيدتى الجمـيلة ليظـهر اعتزازه بـالإنجليز وتفـوقهم اللغـــوى ، فيقـول : إن الأمـريكان لم يتكـلموا الإنجليزيـة منذ سنين . كان الفتى ينصت لأسئلة الأساتذة بتركيز شديد ، وينصت كذلك لإجابات زملائه ... ربما كـان بعض هذه الإجابات خطأ ، أو حتى معظمها ، ولكنها السرعـة والطلاقة التى يتكلمون بها .. أنها لغتهم ، لايجـدون فيها مشقة كتلك التى يجدهـا الفتى عندما يجيـب أو يحاول التعبـير عن نفســه ، ولو أن لغته كانـت أفضل بكثير من لغة بعض زملائه الأجـانب - كما أخبره مدرسو اللغة . ولكـنه كان يـتردد فى الإجـابة فى بـادئ الأمر . وكان الأسـاتذة

يستحثونه ، وأغلبهم يشجعونه ويدفعونه إلى الأمام . .

كذلك الأستاذ الذى تأثر به كثيرا ، والذى كان شديدا ، جاد الملامح ، جامد التعبير ، ثرى المعلومات . كان يضع أمامه مفكرة صغيرة ، كتب فيها أسماء الطلاب . . وكان إسم الفتى فى أول القائمة . كان الأستاذ يقرأ إسم الطالب ، ثم يفجأه بالسؤال . . . وكأن الأخير مصيدة تطبق على رأس الطالب فيدوخ ، ويفكر ، ويجيب ، أو لايتمكن من الإجابة . وكان الأستاذ يغضب من عدم الإجابة أو التردد فيها ، ويفرح للإجابات الصحيحة ويشجع أصحابها . كان الفتى يرى أن هذه الأسئلة صعبة أول الأمر . . . وبعد أن يفكر فيها يجد الإجابة عنها سهلة ممكنة .

تعلم الفتى من هذا الأستاذ وحده فى فصل دراسى واحد ما تعلمه من عدة أساتذة فى عدة فصول . كان يبدأ درسه بسؤال ، أو يثير قضية يناقش الطلاب فيها . انظر كيف يتبع هؤلاء الناس مبادئ ديننا الحنيف دون أن يعرفوها . فقد كان النبى ﷺ كثيراً ما يبدأ الحديث مع صحابته الأجلاء بالسؤال : هل أدلكم على ؟ . . هل تدرون ؟ . . ألا أخبركم . ؟ فكان يشحذ الفكر ويعهد الأذهان للتلقى ويثير الدافع لسماع ما يأتى من حديث .

وكان هذا الأستاذ يكلف تلاميذه بقراءة عدة مراجع ، ثم

عرضها فـى قاعة الدرس ، ثم مناقـشتهم فيها . وقـد كان المرجع الذى كلف هـذا الأستاذ الفتى بقراءتـه كتابا رائعا عن شـخصيات الموظفين والمنظمات التى يعملـون فيها . قرأ الفتى الكتاب ، سهر عدة ليال يستوعبه ويلخصه ويستخلص الدروس المستفادة منه . ثم عرضه فى قاعة الدرس على الأستاذ وبقية الطلاب . كان العرض جيـدا ، والتلـخيـص وافيا . . وبـدا إعجاب الأسـتاذ والـطلاب واضحا . . .

ولكن ! جاء وقت الأسئلة . سـأله الطلاب فأجاب ، وسأله الأستاذ فأجاب . ثـم سأله الأستاذ مرة أخرى سؤالا لـم يعمل له حسابا . قال له : ما رأيك فيما يقـوله مؤلف الكتاب ؟ يسأله عن رأيه فى مؤلـف كبير تدرس كتـبه بالجامعات ! كـيف ذلك ؟ تردد الفتى . مـاذا يقول . . يتفق ، يـعارض ، يسكت ، يقـف على الحياد . . . هل يمكن أن يعارض مؤلفا كبيرا !

أعاد الأستاذ سؤاله . . وبدا عليه الضيق . . ها هو قد انتظر قليلا ولكـن صبره نفـد . تـكلم الفتـى . . قـال رأيه واضحا بطـيئـا . . . حـاول أن يبـدو واثقا وإن كـان متـرددا . . إرتاح الأستاذ ، ورصـد فى دفتره درجـة أو علامة غامـضة لم يعـرفها الفتـى فى حينـها . ولكنـه حصل فى نـهاية الفـصل على تـقدير

«ممتاز» من هــذا الأستاذ الذى أصبح صديقا وأخا كبيرا له فيما بعد . . يشجعه ويدفعه للأمام .

ومرة سأل هذا الأستاذ تلاميذه سؤالا ، كان الفتى يعرف إجابته . ولكنه نظر إلى رفاقه فوجدهم صامتين . لماذا لايتكلمون ؟ لابد أن الإجابة شىء آخر غير التى يعرفها . . ربما كان الأستاذ يبحث عن إجابة أخرى معقدة . وصمت الأستاذ برهة ، ثم كرر سؤاله ، وكرر الطلاب صمتهم . فغضب الأستاذ . . . ولم يجد الفتى مفرا من أن يرفع يده . . وألقى إجابته جملة واحدة ، حرص على أن تكون منظمة صحيحة كما أسعفته لغته ، والمعلومات التى حصلها من أساتذته المصريين ، العمالقة الآخرين الذين يكن لكثير منهم كل ود وحب وإعجاب . . وإن كان آخرون منهم لم يتركوا فى نفسه أثرا كبيرا . . . وهكذا الناس فى كل مكان ، يوجد منهم الثمين ، والمتوسط ، والفقير .

صمت الأستاذ برهة ، وظن الفتى أنه لم يصب الهدف . ونظر الأستاذ إلى بقية الطلاب وقال لهم بالحرف الواحد : « هذا طالب جاء من أعالى البحار لكى يشرح لكم إجابة هذا السؤال » . خجل الفتى لحظة ، وأحس بالزهو لحظة أخرى ،

وأثارت العبارة فى نفوس الطلاب الآخرين مزيجا من الإعجاب والتقدير وبعض الغيظ أيضًا . أما الفتى فقد شعر بعد ذلك أنه يقف على أرض صلبة . . كان هذا السؤال نقطة تحول . . إشارة خضراء للفتى أن ينطلق . . الطريق أمامه . . مفتوح ، ممهد قليلا ، ولكنه أيضًا صعب ، يحتاج إلى كل يقظة وإستعداد .

وكان كلما سأل الأستاذ بعد ذلك سؤالا تحفز الفتى للإجابة ، ونظر الطلاب إليه كأنهم يتوقعون أن تكون لديه الإجابة الصحيحة . وقد قال له أحد الطلبة الأمريكان ينحدر من أصل إيطالى ، وكان معه فى هذا الفصل ، وفى فصل آخر أيضًا . . قال له مداعبا : إنك فعلا تحب موضوع تخصصك . . نعم إن حبك للشىء يمدك بحماس يجعلك تحاول أن تتقنه .

تأثر الفتى بأستاذه هذا كثيرا ، وأعجب به كثيرا . . كان عملاقا فى نظره . . كان يدخن سيجارا قصيرا ، ولكن رائحته تمتد لمسافات طويلة . كان هادئ الحركة يبدو عليه التركيز الشديد والإهتمام بما يقول . . . كان واثقا من نفسه ، وكان يريد من طلابه أن ينهلوا من العلم ما يستطيعون . . لم يكن يتهاون فيه . . لم يصبر على الصامتين . . يظل وراءهم إلى أن يفكروا . . يتكلموا . كان يضايقه أن يتخلف طالب عن حضور

درس واحد . غـاب الفتـى مرة عن درس هـذا الأستاذ ، فـسأل الأخير عنه بعد أن نادى إسمه ولم يسمع ردا . سأل بقية الطلاب عنه : هل ترك الدراسة . وهرع طالب كـورى يخبر الفتى بما قال الأستاذ . وذهـب الفتى إلى الـدرس التالى وربمـا لم يتغيـب بعد ذلك عن درس إلا نادراً .

لقد كانت عـادته الإنتظام منذ الصغـر . هكذا عوده أبوه . . ولماذا الغياب ؟ كان أبوه - المعلم والأسـتاذ القديم - يكره الغياب حتى لـو كانت هنـاك أعذار . يذكر الفـتى أنه أراد أن يغـيب عن المدرسة يوما وهو صبى صغير . وذلك يوم « سبوع » أخيه الوليد الجديد . كان هناك احتفال كبير تجتمع له النساء والأقارب يبتهجون ويغنون ويهنئون ويدعون الله أن يحـفظ الوليد . وعز على الصبى أن يتخلـف عن هذا الحفل . . أراد أن يحضره مـن أوله . . فهو يرى من الصباح الباكر حركة غيـر عادية فى البيت الكبير . . لابد أن شيئًا فخما تعده النساء والخدم اليوم . . سأله أبوه فى حنان عن سبب غيابه . قال له إنه يحس بألم فى معدته ، ولكن أمه عرفت السبب الحقيـقى وأسرت به إلى أبيه . فربت أبوه عـلى كتفه فى حنان فياض وقال له : سنرجئ الحفل حتى تعود من المدرسة .

إستمر الولـد على عادة الإنتظام . . ولم يتـخلف عن دروسه

فى المدرسة إلا عند المرض . وكانت المدارس تعزز قواعد الإنتظام وتضبط المتخلفين . وكان الولد يرى بعض زملائه يتخلفون عن درس أو آخر . . كما كان يرى بعضهم يتسلق سور المدرسة ، فيلقى الواحد منهم حقيبة كتبه خارج المدرسة ، ثم يتعلق بأعمدة السور كأنه القرد ، حتى يعتلى حائط المدرسة ، ثم يقفز بسرعة خارجها ويسعى خفيفا حتى لايمسكه مدرس الألعاب أو مشرف المدرسة أو غيرهما ممن يناط بهم حفظ النظام . لم يحاول صاحبنا أن يقلد هؤلاء . . . ربما فكر فى هذا يوما ، ولكنه لم يجرؤ على الغياب أو ترك المدرسة وإنما حرص على أن يكون دائمًا فى صفوف التلاميذ الحاضرين يتلقى معهم من العلم ما شاء الله لهم أن يتلقوا .

استمر الفتى على ذلك حتى عندما ذهب إلى الجامعة فى القاهرة . . غير أن أحد أصدقائه حاول أن يغير له هذه العادة . كان هذا الصديق شابا ينحدر من أسرة عريقة ، يمتلك أبوه مصنعا كبيرًا ، وقد أعد أولاده ليعملوا فى هذا المصنع . غير أن الحكومة أممته بعد ذلك ، فانصرف الأولاد إلى مشروعاتهم الخاصة ، وحققوا فيها نجاحا كبيرًا .

عندما رأى هذا الصديق الفتى يحرص على حضور دروسه وينصت للأساتذة ، بدأ يخبره أن هذه المحاضرة غير هامة ، وأنه يمكن أن يذهب معه إلى السينما . وأخذ الفتى معه مرة تلو المرة . . هذا فيلم مسل ، وهذه قصة جيدة . . هذا فيلم مغامرات . وتخلى الفتى قليلا عن عادة الحضور . شجعه على ذلك كبر أعداد الطلاب ، وضخامة مدرج المحاضرات وإحساسه بالضياع وسط هذا الحشد الكبير ، وتغيب بعض الأساتذة أحيانا وتأخرهم أحيانا أخرى .

ولكن الفتى عاد إلى الإنتظام مرة أخرى فى مجتمعه الأمريكى الجديد . أثارته جدية الناس من حوله ، والإيقاع السريع الذى تجرى به الحياة . وحرص الأساتذة قبل الطلاب على تحصيل العلم ، والإنجاز ، والنجاح . ألم يوصينا رسولنا الكريم ﷺ بهذا : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » . إن معظم الناس الذين إلتقى بهم الفتى فى جامعته وخارجها ، كانوا على مستوى عال من الجدية . ولم يكن جدهم فى نفس الوقت يمنعهم من أن يأخذوا حظهم من اللعب ، واللهو فى وقت الفراغ . كانوا يجيدون كل شيء ، العمل واللعب على السواء .

تأثر الفتى إذن بأستاذه هذا الذى كان من أوائل الأساتذة

الذين تلقى عنهم العلم ، لقد أعجب به وأحبه . وقد قال له هذا الأستاذ بعد مرور أكثر من سنة ، وبعد أن تتلمذ عليه مرة أخرى فى برنامج الدكتوراه : رباه . . . انظر كيف تغيرت . . أذكر عندما جئت أول مرة ، وأقارن حالك الآن . . . إنك تجيد التعبير ، تثق فى نفسك ، تقبل على العلم ، إستمر على هذا المنوال . كما أبدى أستاذ آخر إعجابه بالفتى وسماه « المنجز » . . إنه مجتمع المنجزين - كما يطلق عليه مكليلاند ، المجتمع الذى يستوعب الجادين ويفسح لهم مكانا رحبا ويتيح الفرص لهم للإبداع حتى يحققوا النتائج التى يسعون إليها . . . أما المتخاذلون ، المتقاعسون ، فلا مكان لهم . . يلفظهم هذا المجتمع . . . يضيق صدره بهم ، يسقطهم من حسابه تمامًا .

وكذلك أعجب الفتى بأستاذ آخر . . طويل القامة ، هادئ الطبع ، ترتسم على وجهة ابتسامة جادة ، أو جد باسم . كان يدير حلقة الدراسة ببراعة . كان الدرس عبارة عن قراءات يجريها الطلاب فى منازلهم والمكتبات ، ثم يناقشونها فى قاعة الدرس وينصتون إلى توجيهات الأستاذ . وكان هذا يتابع المناقشات بعقل مفتوح ، ويحرص على إفادة الجميع . يلقى معلوماته عليهم ، سهلة بسيطة ، ويوجههم لأخطائهم . . . وكان يكلف الطلاب

بهذه الواجبات . . . فرادى وفى جماعات . فكان يشرك إثنين أو ثلاثة فى فريق عمل واحد ، يقرأون كتابا أو بحثا . . ثم يحضرون إلى قاعة الدرس ويتولون عرضه على الآخرين ، ثم يجيبون عن أسئلتهم وأسئلة الأستاذ . . . .

كم كانت هذه الدروس تذكر الفتى بالأسلوب الأزهرى فى التدريس . . . حيث كان الشيخ يجمع تلاميذه حوله . . . ويستند إلى عامود ، يلقى عليهم الدرس ، ويسألونه ويتحاورون . . . وكانت ساحة الأزهر تعرف بعواميدها ، هذا عامود الشيخ فلان . . وذلك للشيخ فلان . . أجمل شىء أن يلتف الناس فى مجلس للعلم ، يسمعون ويناقشون ويفكرون . . . هذا شىء نفتقده فى جامعاتنا ، حيث الأعداد كبيرة ، فلا تتاح الفرصة للطالب أن يكلم أستاذه ، يسأله ، يستزيد من علمه ، يطلب منه مراجع أكثر . . . لقد شعر الفتى خلال بعثته أن الأساتذة كانوا أصدقاءه ، إخوة كبارا ، أو آباء . . ساعد على ذلك بالتأكيد صغر أعداد طلاب الدراسات العليا وخاصة فى برنامج الدكتوراه . . . لقد حضر الفتى دروسا كان فيها ثلاثة طلاب فقط هو أحدهم . . . وكانوا يتداولون نكتة مفادها أنه لو غاب واحد منهم فقد غاب ثلث الجماعة . كما حضر درسا آخر كان هو الطالب الوحيد فيه . . . وقد سعد بهذا الدرس كثيراً ، فقد شعر

فيه بالتميز « والخصوصية » . كان الأستاذ يجلس معه فى مكتبه ، يعطيه توجيهاته ، يكلفه بقراءات وبحوث ، ويناقشه فيما قرأ وبحث .

نال كثير من الأساتذة - أمريكين وصينيين ومصريين وكنديين - إعجاب الفتى وتأثر بهم كثيراً . ومن جهة أخرى بقدر ما أعجب بهؤلاء ، فإن فريقا آخر لم يترك فى نفسه أثرا ، أو أحدث أثرا سلبيا . كانت لهم أخطاؤهم - الشخصية أو التوجيهية . كذلك الأستاذ الذى كان يدرس مادة الإحصاء . كان يعجب بنفسه كثيرا ، يمشى مختالا ، يتعالى على الطلاب ، يتتبع أخطاءهم ، يحب إيقاعهم فى مآزق ، يضيق عليهم الخناق ويبدو أنه يستمتع بمعاناتهم وطلبهم للنجاة . لقد أطلق عليه الطلاب الأمريكيون - زملاء الفتى فى الدراسة - لقبا معينا . فلا يذكرونه باسمه عندما يتكلمون عنه وعن المادة التى يدرسها أو الواجبات التى يكلفهم بها . ولكنهم يتعارفون عليه بهذا اللقب . ولايرد ذكره حتى يتذمر البعض ، ويتندر البعض الآخر ، ويتغامز كثير منهم .

كما أن أستاذا آخر كان الفتى يغتاظ من محاضراته كثيرا . . . لقد كان ضعيف المعلومات ، قليل الرغبة فى إلقاء العلم ، لايهتم بطلابه . وكان أحيانا يجيب بلا أدرى إذا سأله طالب سؤالا .

وكانت هـذه الإجابة تضايـق الفتى بشـدة . صحيح أن كثـيراً من الأمور لايـعلمهـا الإنسان . ولكـن هذا يقـف موقف المعـلم . . مصـدر المعلـومات . . ينـتظر الطـلاب منه الـعلم ، يـريدون أن يهديهم إلى المعرفة . . . يمكـن أن يقول لا أدرى بالنسبة لسؤال أو إثنين . . ولكـن ليس معظم الأسـئلة . وحتى إن كان لايـعلم ، فيمكن أن يوجه الطالب إلى مصدر آخر ، مرجع ثان . . .

أساتذة كثيرون تتلمذ عليهـم الفتى . . من أجناس مختلفة ، معظمهم أمريكيون . حرص الفتى أن يأخذ عنهم العلم ما إستطاع لذلك سبيلا . . ولـم يكن يتخلف عن محاضرة إلا نادراً . ويذكر الفتـى بكل الود ذلـك الأستاذ الذى درس مـعه مادة « جمـاعات العمـل الصغيرة » . لـقد كان أستاذا متـدفق المعلومـات ، ناضج الشخصـية ، معبرا ودودا . لم تقـتصر علاقته مع الـطلاب على قاعة الدرس . كان يلتقى بهم فى مكتبه ، وفى كافتيريا الجامعة . كانـت هذه عادة مـعظم الأسـاتذة ، يـجلسـون مع الطـلاب فى الكافتيريـا . يسمرون مع أكواب القهوة وخلال الـغذاء . يتبادلون ليس فقـط العلم والمعـرفة ، ولكن يتكـلمون فى كثيـر من أمور الحياة .

كان هذا الأسـتاذ واحدا منـهم . وكان يحـب العرب ويعـنى

بشئونهم . . . وكان واسع الإطلاع عن مصر وحضارتها القديمة ، كان أكثر أصدقـائه من العرب . كان طيب المـزاج ، حاد الذكاء ، سريـع النكـتة . أما فـى قاعة المحاضـرة . . فكان يـغمر طـلابه بالمعلومات . كان يتكلم زهـاء الساعة دون كلل أو توقف ، وكأنه شلال انحدر فجأة مـن صخرة عالية . كانت أنظار الـطلاب تتعلق به ، ولايفـقد أحد انتباهـه . وكان الفتى يلـتهم كلامه إلتـهاما ، يستـوعب كل كلمـة يقولها ، أو يـكتبهـا على السبـورة ، ويظل مشدوداً للدرس لايكاد يشغله عنه شىء .

وكان يشبهه فى ذلك أستاذ آخر ، صيـنى . تتلمذ الفتى عليه فى مادة أخرى للإحصاء . كان هذا الأستاذ طويل القامة - أطول صينى رآه الفتى فى حياته - مبتسم الوجه واثقا من نفسه . تتلمذ الفتى عليه مرتين ، واحدة فى الماجستير والأخرى فى الدكتوراه . كان الأستاذ يلقى معلوماته على الطلاب كأنها طلقات الرصاص ، توقظهم تـدوشهم ، تثير فى نفـوسهم الرغبة للمـعرفة . كان يملأ السبورة أرقاما ومعادلات . كان يتنقل بخفة بين السبورات العديدة التى تغطى حوائط القاعة ، يرشق الأرقام عليها جميعا ، ويوصلها بالرموز الرياضيـة المختلفة . وكأنه رسام ماهر يخط بـريشته لوحة رقمية رائـعة . أو كأنه فنان فى مـسرح للعرائس . يـحرك الرموز الجامدة لتـحكى قصة مثيرة . أو كـأنه موسيقى بارع اختـار النوتة

من الأرقام والمعادلات ، ليؤلف سيمفونية صاخبة تهزك هزا وتعصر فكرك عصرا .

كان أول درس يلقيه هذا الأستاذ على تلاميذه فى أول لقاء ، عبارة عن إمتحان . يستقبله الطلاب واجمين . هل هذه هى البداية ؟ ولايفهم الطلاب هذا الإمتحان الغريب ، ويرسبون فيه جميعا ولكن بدرجات متفاوتة . إنه إمتحان إستطلاعى . . . اختبار للقدرات الرياضية والإحصائية لدى هؤلاء الطلاب . شرح الأستاذ وجهة نظره فى ذلك فيما بعد - عندما ارتقى الفتى لمرحلة الدكتوراه - بأنه يريد من الطلاب الصنف الجاد فقط ، الذى يقبل التحدى ولايهزه الرسوب الأول . وهذا ما يتعارف عليه أطباء الجسم والنفس من العلاج عن طريق الصدمة . فهم الفتى ذلك عندما كان يرى كثيراً من الطلاب يتركون مادة هذا الأستاذ ، وكأنهم أوراق جافة تتساقط عن شجرة كبيرة - كانوا يفرون بأجسامهم وعقولهم . وكانت إحدى زميلات الفتى فى هذه المادة متخصصة فى الرياضيات ولكن بعد إخفاقها فى أول اختبار ، تركت المادة وهربت . . . أصابها الإحباط ، وخشيت أن ترسب مرة أخرى . ولولا أن هذه المادة كانت من المواد الملزمة التى لابد أن يدرسها الفتى لتركها أيضًا ومضى لمادة أخرى مع أستاذ غيره .

وهذا أستاذ آخر ، اضطر الفتى أن يتتلمذ عليه ، لأن المادة التى يدرسها أيضًا ملزمة . كان يبدو على الأستاذ أنه لايميل إلى الأجانب كثيراً . كان ينظر إلى الطلاب نظرة فومية . كان غزير المعلومات حسن الإلقاء معبرا . ولكنه متجهم الوجه ، لم يكن يبتسم أبدا . وكأنه جاء إلى المحاضرة مرغما . . كان لاينظر إلى محدثه كثيراً وكأنه يتحاشاه ، وإذا نظر إليه فمن ركن عينه . كان إذا سأل أحد طلابه سؤالا فكأنه يتحداه أو يعاقبه . فإذا أجاب الطالب لم ترضه الإجابة . . . وإذا أرضته فلا يظهر رضاه . وكأنه يريد أن يخطئ الطالب فيصب عليه غضبه . لم يرتح الفتى لهذا الأستاذ منذ اللحظة الأولى ، ولم يرتح له الأستاذ أيضًا . كان الشعور متبادلا . حرص الفتى على الحضور ، وإكمال الواجبات وأداء الإختبارات ، حتى نجح وتخلص من هذه المادة التى لم تكن تثير إنتباهه كثيراً ، حتى عندما كان فى مصر . كان يتجرعها ولايكاد يسيغها .

كان الفتى يقبل على المحاضرات وقاعات الدرس بروح وثابة للعلم . . . وكان يعجب كثيراً بالأساتذة الذين يحبون طلابهم ويقدمون لهم العلم والمعرفة عن طيب خاطر ، وكأنهم يقدمون لهم الهدايا . . كما كان يعجب بالأساتذة الذين يحاورون الطلاب ، يسألونهم فيجيبون ، يصيبون أو يخطئون ، فيوجهونهم ويرشدونهم لمزيد من المعرفة .

كان الفتى يحب قاعات الدرس الصغيرة . . . التى يجتمع فيها عشرون طالبا أو يزيدون قليلا . . . كانت قنوات الإتصال مفتوحة بين الأساتذة والطلاب ، وبين هؤلاء وبعضهم . . . كانت هناك فرص كبيرة لأن يسأل الطالب عما يريد ، يستفهم . . يستفسر . . يستزيد . كما كان الأستاذ يسأل بدوره ، ويعرف رد الفعل عند طلابه . . . ويقيس قدراتهم . .

يذكر الفتى بكل الخير الأستاذ الذى تتلمذ عليه فى إحدى المواد التى كان يحبها كثيراً . كان الأستاذ هادئا ، واثقا ، يدخن الغليون ، ويتكلم ببطء ، يثير فى كل مرة يدخل فيها قاعة الدرس قضية يكثر حولها الجدل وتختلف الآراء . . . ويذكر وجهات نظر الكتاب والباحثين حولها ، ويسأل الطلاب عما يرون فيها . . . ويتكلم الطلاب ، فيستمع إليهم بهدوء .

وفى إحدى المرات كان هذا الأستاذ يناقش مع تلاميذه العلاقة بين المصانع ونقابات العمال ، والدور الذى تلعبه الأخيرة فى حياة العاملين . وقام الأستاذ إلى السبورة ورسم مربعين كتب على الأول الإدارة ، وعلى الآخر النقابة ، ثم رسم مربعا ثالثا فوقهما وكتب عليه الإضراب ، مشيرا إلى أن العنصر الذى يحكم علاقة الطرفين هو إضراب العاملين أو إغلاق الإدارة للمصنع . وتعجب

الفتى من هذا الشكل البيـانى . ورفع يده ليدلى بدلوه ، وقال : لماذا لايكون المـربع العلوى هو التفـاهم والتعاون يجمـع الطرفين ويوفق بينهما ويوحد جهودهما نحو هدف مشترك .

ضحك الطلاب وإبتسم الأستـاذ وحار الفتى . ونظر الطلاب لبـعضهم ثـم للفـتى ، والأستـاذ . . . ولسان حالـهم يقـول إنه لايعرف عاداتنـا وطريقة حياتنا . وقـال له الأستاذ : إن الإضراب جزء من ثقافة هذا المجتمع . فهم الفتى ذلك جيدًا فيما بعد . . . فهذا إضراب عمال فى مصنع مـعين ، وهذا إضراب لعمال صناعة بأسرها . وهؤلاء هم العمال المضربـون . . . يقفون أمام مصنعهم فى صـفوف يعـلقون لافـتات تعلـن إضرابهـم عن العـمل . . . وللمـضربين مطالـب . . . ولأصحاب الأعمـال ردود أفعال . . . أنها لعـبة ، ربما كسب فيـها طرف على حسـاب الآخر ، أو خسر الإثنـان . قال الأسـتاذ إنهـا تشـبه لعـبة الـبوكر ، لـها تحركات وتكـتيكـات . . . كل طرف يـحاول أن يوهـم الطرف الآخـر أنه يتحرك من منطلق قوى ، وأن فى جعـبته سهاما يمكن أن يوجهها إلى خصمه فى الوقت المناسب .

إذن فهو أسلوب حـياة لدى الأمريكان . . . وقد شهـد الفتى ألوانا من الإضرابات . فأيام حـرب فيتنام ، كان الإضراب إحدى

الوسائل التى لجأ إليهـا الناس ، نساء ورجالا ، أفرادا وعائلات ، ليعبروا عن استيائهم من هذه الحرب الطويلة ورغبتهم فى وقفها . فاختاروا ما أسموه الإضراب الصـامت . . . يقف الناس ساعة أو يزيد ، لايصخبـون ولايهتفون . . . وإنما يحملون لافـتات تطالب بإنهاء الحرب وحقن دماء الجنود .

كما كان الإضـراب الشهير لعـمال القمامة . كـف هؤلاء عن جمع القمامة وحملها بعـيدا عن المنازل والطرقات . . . فكنت إذا مشيت فى شوارع نيويورك ، المدينة التى يقصدها سياح العالم من كل مكان ، ترى أكواما كبيرة من القمامة ، ليلا ونهارا . . تتكاثر بمرور الوقـت . . . وتتعرض للشـمس والهواء والمطر . . وتـرتفع رائحتها التى تزكم الأنوف . . إلـى أن جاء الحرس الوطنى وانتشر فى الأحياء يجمعها . . الجيش يجمع القمامة !

أسلـوب حيـاة نعم . . . ولـكن لماذا . . ألا تـوجد وسـائل أخرى للـتعبير عن الـغضب والحصول علـى المطالب التى يـريدها العـمال . هـذا هو مـا اقتـرحه الـفتـى - الطـالب الـذى يدرس للماجـستير - لأستاذه فى قـاعة الدرس . أن يحل التفـاهم محل النزاع ، والتعاون محل الإضراب .

ولم يكن يدور بخلد الفتى أنه سيقرأ بعد ذلك بسنوات - بعد

حصوله على الدكتوراه واشتغاله أستاذا ومؤلفا - لأحد الكتاب الأمريكيين الذين يحب قراءة أبحاثهم وقد تأثر به كثيرا . . . سيقرأ لهذا الكاتب رأيا جديدا . وهو أن النقابات العمالية قد أثبتت وجودها ، وأسست تنظيماتها ، وحصلت على اعتراف الإدارة والحكومات بها . فلماذا لاتكون هناك وسيلة أخرى غير الإضراب . . . وسيلة هى التعاون والتفاهم واستعداد الطرفين لحل المشكلات المتنازع عليها . . . نفس الجملة التى قالها طالب صعيدى صغير قبل خمسة عشر عامًا !!!

كما أثار إنتباه الفتى مادة أخرى للإحصاء . . درسها له أستاذ كندى أعجب به الفتى كثيرا . كان الأستاذ يكلف طلابه بالواجبات الرياضية المختلفة ويطلب منهم أن ينجزوها على الكمبيوتر . ثم يحضرون لقاعة الدرس يعرضونها ويناقشونها . وعرف الفتى الكمبيوتر لأول مرة . . . كان جهازا ضخما يقبع فى البهو الكبير بمركز الحساب الآلى بالجامعة . . . أسطول يصطف إلى جوار بعضه وكأنه جيش من الوحوش . إلا أنها وحوش أليفة لاتبطش بمن يقترب منها ، وإنما ترحب به ، تتكلم معه ، تقضى حاجته . اقترب الفتى من الكمبيوتر دون خوف ، ولماذا يخاف الناس من الآلات ؟ ، تعامل معه بحب ، طفت غريزة حب الاستطلاع عنده على السطح ، أراد أن يكتشف أسراره ،

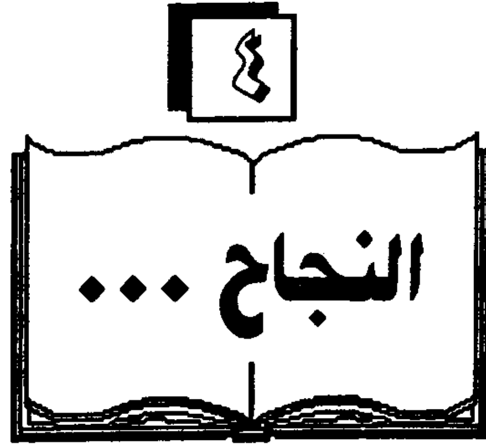
كيف يعــمل ؟ ما هى لغته ؟ كيــف يجيبه إذا سأل ؟ عالــج الفتى هذه الأســئلــة بنفــسه واستــرشد بــخبرة زمــلائه . . وارتــاح إلى الكمــبيوتر ووجد فــيه صديقا مــطيعا ، وأنــس إلى صحبتــه حتى أصبح يــنتظر اليوم الــذى يذهب فيه إلــى مركز الحساب ، ليــنجز واجبات الأستاذ الكندى ثم بحثه للدكتوراه بعد ذلك .

وكان الفتى يقابل زميلا له كوريا ، كلما ذهب إلى هذا المركز أو عاد . وكــان يثــير الفــتى أن هذا الــكورى يــحمل كــثيــرًا من صحائف الــكمبيوتر ، حتــى ليكاد ينوء بحــملها . ويتفقــد الفتى أوراقه ، ويتــأكد من صحة بــياناته ، ويراجــع حلوله للــواجبات المعــطاة لهمــا . ثم يسأل زمــيله الكــورى : أليست أوراقــك هذه حلولا للمسائل التى كلفنا بها الأستاذ ؟ ويجيبه زميله بالإيجاب . ولكن لماذا تحمل كل هذه الأوراق ؟ يخبره الطالب الكورى أنه لم يكتــف بالواجب الذى كــلفهم به الأستــاذ الكندى ، فبــحث عن مسائل أخرى مشابــهة ومختلفة ، ودرسها وحلها جــميعا ، طائعا مختارا راغبا فى مزيد من العلم مقبلا على مزيد من الجهد .

انظر كيف تفكر الشعوب ، تثابر - بيضاء وصفراء وحمراء - تتــسابق للــفوز . فهــم الفتــى سلوك هــذا الكورى بعــد ذلك بســنوات ، عــندما رأى نــهضة كوريــا - أحد النــمور الآسيــوية

المتحفزة . . . وعـندما شاهد الكوريين فى دول الخلـيج العربى ، يعملون بهمة ونشاط ، وكأنهم فى معسكر كبير . . . وعندما رأى منتجاتهم المختلفة يستخدمها المستهلكون فى شتى بقاع العالم .

إنها الجدية التى تتميز بها شعوب اليوم . . التى تريد أن تأخذ بأسباب التقدم وتلحق بالركـب . . . التى تريد أن تتنافس وتصارع الأمم التى سـبقتهـا وتتفوق علـيها . من لايـتقدم يتـقادم ، ومن لايركض يتقهقر ، ومن لايظهر يتوارى عن الأنظار . . . لا مكان اليوم للمتخلفين .



﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾

سورة النساء ١١٣

☆ ☆ ☆

استعن بالله ولا تعجز

حديث شريف

تعرض الـفتى خلال دراسته لـصنوف من الإختبـارات وفنون من الإمتحانات . كان الامتحان أشبه بالنشاط اليومى . نبهه لذلك صديق مصرى مخـلص ، قابله الفتى فى أوائل أيـامه بالجامعة . قال له الصديق ناصحا : توقع الإمتحانات هنا يوميا ، كن مستعدا لها . إذن فـالامتحان جـزء من العملـية التعـليمية يـتكامل مـعها ويعززهـا . . وليس آخر المطاف . ومـن ثم لايتم تقويم الـطالب على أساس الإمـتحان النهائـى فحسب . وإنما خلال الإمـتحانات المختلـفة للمادة الـتى يدرسها ، بالإضـافة إلى مقايـيس أخرى ، كالأبحـاث والمساهمـة فى النقـاش وحضور الطـالب الذهنـى قبل حضوره البدنى .

خاض الفتى عديدا من الإختبارات . . . كان كل اختبار خبرة فى حد ذاته لايستهـان بها . فرصة يتعلم فيها الـطالب كيف يرتب أفكاره ، يعرض معلوماته ، يجيـب عن الأسئلة المطروحة ، يعبر عن آرائه ، يمارس ذكاءه ، يقنع الممتحنين أنه يستحق النجاح .

فكان الإمتحان التقليدى الذى يسـتلم فيه الطالب ورقة تمتلئ بالأسئلـة يجيب عنها واحـدا بعد الآخر . . . وقد تخـتلف صور هذه الأسئلـة . فمن السؤال المباشـر الذى يطلب من التـلميذ أن يردد ما تعلـم ، ويسرد ما قرأ فى نسق معين . . إلـى السؤال غير

المباشر أو الذكى ، الذى لايبحث فقط فـى المعلومات التى حصلها الطالـــب ، ولكن فى قدرته على إسـتخدامها ، ترتيبـها ، الربط بينها ، مقـارنتها ، وضعها فى الأماكن المـلائمة . . . إلى السؤال عـــن الآراء أو وجهات النـظر فى قضـية معيـنة يختـلف عليـها الباحثون . . . إلى المشكلة أو الحالة العملية - واقعية أو افتراضية - والتـى تتـضمـن مجـموعـة من المـواقف والأحـداث والأرقام والممارسات . . . ويطلب من الطالب أن « يحل » هذه المشكلة أو يعرض البدائل الملائمة للحل .

وكان الإمتحان المـفاجئ ، الذى لايعلن موعـده أو محتواه . فيمكــن أن يعقده الأستاذ فـى أى يوم من أيام محاضـراته ، وفى الأجزاء الـتى يراهـا من المنهـج . . . وكان الهـدف من مثـل هذا الإمتحان - وكان الأستاذ ينبه فى أول يوم دراسى أنه ستكون مثل هذه الإمتحانات فى مواعيد غيـر محدده سلفا - أن يذاكر الطالب دروسه ويراجع معلوماته ، يوما بيوم ، ولايؤجل درس اليوم إلى غد (كما يفعل كثير من الطلاب عندنا وعندهم) وأن يكون بذلك مسـتعدا لأداء الإمـتحان فى أى وقـت يطلـب منه ذلـك ، ولماذا يخاف منه إذا كان قد أعد له العدة وإنتظره وقبل تحدياته ؟

وكان هـناك الإمتحـان الذى يتضـمن الأسئـلة والحلول مـعا

ويسمونـه الإختبار المتعدد الإختـيار . فيعرض السؤال وتـتـبعه عدة إجابات - فـى الغالب متـشابهة - ويخـتار الطالب إجـابة واحدة يعتقد أنها الصواب . وقد يظن البعض - كما ظن الفتى وكثير من زملائـه فى بـداية الأمـر - أن هذا الإمـتحـان سهـل فالإجـابات معروضة ومـا على الطالب إلا أن يختار . ولكن الواقع غير ذلك تمامًا . إذ تتـطلب عملـية الإختيار تـفكيرا مـركزا سريعا لإنـتقاء الإجابة الصـحيحة . فالامتحـان طويل ويتضمن عـددا هائلا من الأسئلة الـتى تتنـوع فـى صياغتهـا ، وطريقة عرضهـا ، وبدائل حلها . وتصبح المشكلة أصعب إذا إستخدم هذا الإختبار فى مواد الرياضة والإحصاء . هنالك يعصر الـطالب ذهنه ويجرى عمليات حسابـية سريعـة مركزه فى دمـاغه أو فى مسـودة صغيرة ، حـتى يتوصل إلى الإجابة السليمة .

ثـم كـان هناك نوعان من الإخـتبار ، شاهدهمـا الفتى لأول مرة ، وخاض التجربـة فيهما بنجاح . بعد أن أسـعداه وأشقياه . أعجـبته الفـكرة والأسلـوب المتبع فـيهمـا ، وأضنته المجـهودات المطلـوبة لتنفـيذهمـا . فأمـا النوع الأول فهــو امتحان الـكتاب المفتوح ، والثانى هو الإمتحان المنزلى .

فأنت فى النوع الأول تأخذ كتـبك ومذكراتك وجميع أوراقك

إلى قاعة الإمتحان وتضع كل ذلك أمامك . وتستلم ورقة الإمتحان ، وتقرأ الأسئلة ، ثم تبحث عن الإجابات الصحيحة فى هذه الكتب والأوراق .

كان إمتحانا شاقا ، وكان يجرى فى صورتين . إما أن يحدد له وقت معين - ثلاث ساعات مثلا أو خمس - يسلم الطالب إجاباته خلالها . وإما أن يكون مفتوح النهاية غير محدد الساعة - وإن كان فى حدود يوم أو اثنين . فيمكن للطالب أن يترك الإمتحان فى وقت معين ، ويعود مرة أخرى ، أو فى اليوم التالى . خاض الفتى عددا من إمتحانات الكتاب المفتوح والنهاية المفتوحة . ويذكر الفتى أنه فى مرحلة الدكتوراه ، جلس فى أحد هذه الإمتحانات سبع ساعات متواصلة ، حتى التصق بكرسيه ، وانحنى ظهره ، وكلت عيناه ، وضاقت نفسه ، وجن عليه الليل ، فترك الإمتحان ، سلم أوراقه ، استقل سيارته ومضى لايلوى على شىء .

وأما النوع الثانى فهو الإمتحان المنزلى . . . يدفع الأستاذ لطلابه أوراق الإمتحان ، ويطلب منهم أن يأخذوها معهم إلى بيوتهم ، ويعودوا بالإجابات بعد يومين أو ثلاثة - غالبا أثناء عطلة الأسبوع ، حتى يتفرغ الطلاب تمامًا للإمتحان .

وإذا كان إختبار الكتاب المفتوح شاقا ، فإن الإمتحان المنزلى عنيف ، يحيرك ، يرهقك ، يحيط بك . كأنك تصطحب إلى البيت وحشا ضاريا ، ليعيش معك فى غرفة واحدة . مأزق كبير !! الوحش متحفز ، يتطاير الشرر من عينية ، يقذف إليك بأسئلة كأنها ألسنة اللهب . يتحداك ، ينقض عليك يمنعك من الراحة أو النوم . . . وأنت تحاوره ، تراوغه ، تريد أن تسبر أغواره ، تتغلب عليه ، تكون أذكى منه . . تفكر ، أى سلاح تهاجمه به ؟ هذه كل الكتب والمراجع أمامك . أين الإجابة ؟ هذه . . . تلك . . تشكيلة منهما . . . كيف تصوغها، كيف تربط الحقائق والأرقام ونتائج البحوث فى نسيج حى يدافع عنك ، يترافع لك فى محكمة العلم . . . الوحش يلين ، تنكسر شوكته ، تضعف قوته ، تخف حدة نظراته . . . يتحرك مرة أخرى ، يحاول أن يستجمع قوته - هذا جزء مستتر من السؤال ، هذه نقطة خافية ، هذا معنى غامض . . . . أنت تتنبه لكل ذلك ، توجه له لطمة بعد أخرى . . تقذفه - بعد توفيق الله - بعلمك ، تحيره بذكائك ، تصرعه بالمعرفة . . . الوحش يئن ، ناره تخبو ، قواه تخور . . . يسلم لك ، يعترف بقدراتك ، ينظر إليك بوهن . . . انتهت المباراة ، وكسبت الجولة ، وفزت فى هذا الصراع . . . لم يكن أمام الفتى بديل آخر غير النجاح .



ولم تكن الإختبارات هى الوسيلة الوحيدة التى استخدمتها الجامعة لقياس قدرات الطلاب ودرجات تحصيلهم للمعرفة التى يتلقونها . وإنما كانت هناك أوراق وبحوث ومناقشات . . . وقد كتب الفتى فى مادة واحدة تسع أوراق بحثية ، كانت كل ورقة تتراوح بين عشر وخمس عشرة صفحة ، وتتناول موضوعا يحدده الأستاذ كل أسبوع أو أسبوعين . وقد تعلم الفتى من هذه الأوراق كثيراً . . حيث رجع إلى جفنة من المراجع ، وتحدث مع كثير من الأساتذة ، وناقش وتبادل المعلومات . . أنصت وتكلم واتفق وعارض واستنتج . . . لذلك كانت المكتبة أحد المعالم الرئيسية للجامعة ، وأحد الأجزاء الرئيسية للجدول اليومى الذى يضعه الفتى لنفسه . . . وكانت الجامعة تفتح أبواب مكتبتها إلى ساعة متأخرة من الليل خلال الشهر الأخير للفصل الدراسى ، عندما تقترب الإمتحانات ومواعيد تسليم البحوث ، حتى يتمكن طلاب العلم من الاطلاع على المراجع والوثائق التى يطلبونها وإستعارة الكتب والأبحاث التى يريدونها . ليت أولادنا يتعلمون أهمية المكتبة وفائدتها والدور الذى تلعبه فى حياتنا . . . وليت المدرسين فى المراحل التعليمية الأولى يغرسون فى نفوس الأطفال وعقولهم حب القراءة والرغبة فى إرتياد المكتبات للإطلاع على منافذ العلم والمعرفة . . .

كتب الفتى أوراقا كثيرة أخرى ، تناولت موضوعات عديدة ، يختارها بنفسه أو يدله عليها أستاذه . وكان يحس فى كل مرة يتم فيها بحثا معينا أنه قد كبر ، ازداد طولا ، اقترب من هدفه الكبير . وكان يسعد بالتعليق الذى يكتبه الأستاذ على بحوثه . فإلى جانب الدرجة المعطاة يسجل الأستاذ مديحه أو نقده . . . كتب له الأساتذة ملاحظات مختلفة : مجهود طيب ، استعراض واف للموضوع . . . وقد أسعده كثيراً ذلك التعليق الذى سجله أحد الأساتذة على بحث قدمه فى مادة علم النفس الصناعى « مجهود جيد ، لقد تعلمت كثيراً » .

الأستاذ يتعلم من تلميذه ! نعم ، هكذا المعرفة يتبادلها الناس ، وقد يتفوق التلميذ على أستاذه . كان الإمام الشافعى رحمه الله يشجع طلابه على المعرفة والقراءة والتأمل . . . وكان يجلس مع التلاميذ إذا تكلم أحدهم ويدفع المتكلم إلى المنصة . . . إن للإنجاز شعوراً خاصًا ، وقوة دافعة . فهو يفتح شهيتك لمزيد من العلم والتحصيل ، للإستمرار فى طريقك ، نحو إنجاز آخر ، وهدف أكبر .

ومضت الأيام بالفتى ، يتنقل بين حجرات الدرس ومكتبة الجامعة وقاعات الإمتحان وحلقات النقاش . يستمع لهذا

الأستاذ ، وينهل من ذلك . يقـرأ ويسهر . . . هذه المادة صعبة ، وتلك سهـلة . وهذا الأستاذ يحدد إمـتحانا قادما ، وهـذا يكلف طلابه بقراءة كتـاب معين ثم مناقشته ، وذلك يـطلب بحثا . . . . والفتـى يحرص علـى أداء واجباته ومـقابلة تـوقعات أساتـذته . فيناقش ويقرأ ويتحقق . . . حتـى إنتهى من دراسة المواد المطلوبة لشهادة الماجـستير . . وإقترب الإمتحان الشـامل أو المحيط والذى يسبق منح الشهادة .

فأما شموله فلأنـه يتضمن أسئلة فى جميع مـا تم تحصيله فى الفترة الـسابقة ، والتى يـنتهى منهـا الطالب عادة فى خـلال سنة ونصف أو سـنتين - كل حـسب إجتهـاده ، وحسب توفـر المواد المقررة والأساتذة التى يدرسونها . وهو كذلك محيط لأنه يستحوذ علـيك ويـأخذك مـن جميـع أقطـارك ، ويستـولى عـلى فـكرك ومشاعرك فتنشغل به انشغالا تاما .

جلس الفتى خمس ساعات متواصلة فى هذا الإمتحان يقرأ ، ويستوعـب ، ويكتب . كانت هنـاك قهوة وكعك علـى طاولة فى ركن الغـرفة ، يتناول مـنها الطـلاب ما يريدون . كان الإمـتحان عبارة عن حالة عملية مـعقدة ، ذات جوانب متعددة ، ويراد حل ما بها من مشكلات وإصلاح ما فيـها من عيوب . . . عصر الفتى

ذهنه وإسترجع معلوماته . . . إنه التحدى وإثبات الذات . . . هذه نقطة تحول فاصلة . . . محطة رئيسية فى قطار النجاح . . . وكتب الفتى ما شاء الله له أن يكتب . . . وخرج وكأنه كان يشهد موقعة حربية هو الطرف الرئيسى فيها .

وبعد فترة قصيرة . . . جاءه كتاب من عميد الكلية ، يهنؤه فيه بنجاحه وحصوله على شهادة الماجستير ، ويمدح فيه أداءه الماضى ، ويتمنى له التوفيق فى المستقبل . الحمد لله . سعد الفتى كثيراً بهذا الكتاب ، وكأنه تقلد وساما على صدره . . . قرأه بعناية مرة تلو الأخرى ، وأسرع يمسك ورقة وقلما ، ووجد نفسه يكتب لأبيه : والدى العزيز . . . أهديك اليوم شهادة الماجستير . نعم كان يرى أن أباه هو الشخص الوحيد الذى يستحق أن يهدى إليه هذا الإنجاز الكبير . أليس هو معلمه الأول ! كان يريد أن يشاركه أبوه فرحته . كم تمنى لو طار للحظة يشد فيها على يد أبيه ، ويقبلها ، ويعود مرة أخرى يواصل رحلة كفاحه .

ما أجمل النجاح ! ما أحلى الإنجاز ! ما أروع ذلك الإحساس الذى يجيش فى الصدر ، ويفيض على الآخرين . . . احتفل الفتى مع أصدقائه . . . كانت البهجة تعم الجميع . إن للمشاعر الإنسانية - فرحا أو حزنا - اتصالا لاسلكيا ينتقل بها بين قلوب الأصدقاء وصدورهم وألسنتهم .

يتذكر الفتى أيضًا بكل الفرح والفخر ، تخرجه فى الجامعة بمصر ، وحصوله على البكالوريوس . كان ذلك فى مدينة السويس قبل سفره لأمريكا بثلاث سنوات . كانت الكلية قد اختارته ليقضى شهرا تدريبيا فى معمل تكرير البترول الحكومى . . . وذلك بعد أن إنتهى من الامتحانات الأخيرة ، للسنة الرابعة . . .

حمل الفتى متاعة القليل وتوجه إلى محطة القاهرة ، ليستقل الأوتوبيس قاصدا مدينة السويس . . . كان رأس الفتى يزدحم بالامتحانات التى أداها . . . يا ترى هل كانت إجاباته سليمة ؟ إن الأستاذ فلان متشدد ، وفلان بخيل فى درجاته ، وفلان لايرضى بشىء . . . وصل الفتى إلى مدينة السويس ، العريقة ، الشامخة . . . هذه أول مرة يزورها . . . حاول أن يتلمس فيها آثار حرب ١٩٥٦ - بعد سنوات من إنتهائها - ويشم رائحة البطولات التى حققها المصريون . . . لقد امتلأ رأسه بالأغانى والأناشيد التى قيلت أيام الحرب . . . ولكنه الآن سيعيش فى هذه البلدة الصامدة الصابرة . . . فلتكن إقامته فيها طيبة إن شاء الله .

ذهب الفتى إلى مقره الجديد . إستراحة المعمل ، سيمكث هنا شهرا كاملا ، يتدرب ، يتلقى ، يدخل الحياة العملية . إلتقى

مع فتية آخريـن - من كليات التجارة والهنـدسة والعلوم . حدث تآلف سريع بين هؤلاء الشباب على اختلاف تخصصاتهم وثقافاتهم الفـرعيـة ومواطـن ميـلادهم ، وأكـثر مـن هذا كـله دوافـعهـم وطمـوحـاتهم . ضمتهم الغـربة المؤقتة . . ووحد بينـهم الهدف الذى اجتـمعوا من أجلـه . إنهم جميـعا فى آخر درجات الـسلم التـعليمـى . . . سيتخـرجون بعد أسـابيع ، وربما أيـام . . . هذا مهـندس ، وهذا عـالم طـبيعـى ، وكيمـيائـى ، وجيولـوجى ، ومحاسب .

كانوا يذهبون فى الصباح إلى المعمل ، يتوجهون للمكاتب أو المختبرات أو الحقول - كل حسب تخصـصه ، ينصتون للموظفين الكبـار ، الذين يتـولون تدريبهـم ، وكان يقودهـم جميعـا مدير العلاقات العامة . كان رحمه الله رجلا باش الوجه مبتسما ، حلو المعشر رقيق الحديث . كان حقا يـجيد فن العلاقات . كان يعامل الفتية على أنهم رجال . . أصدقاء . . ضيوف أعزاء .

كل وسائل الراحة كانت متاحة فى الإستراحة . كان العاملون بالمعمل يحتفلون بهؤلاء الشبـاب ويسعدون برؤيتهم - كأنهم كانوا يرون أنـفسهـم فيهـم ، شبابـهم فـى وجوههـم ، أحلامهـم فى نظراتهـم ، طموحاتهم فـى سعيهم إليهـم وتعلمهم مـنهم . ولم

يعـكر صـفو هذه الـسعادة سـوى صخـب بعض هـؤلاء الشـباب وضجيجهم أثناء الليل .

كلفوهـم بكتابة تقرير عـما شاهدوه وتعلموه خـلال الشهر ، أخذ الفتى الأمر بجدية . وعكـف على تقريره يدرسه . . . خطط له جيدًا . . قسمه إلى أجزاء . . كتب عما رأى وسمع وتعلم . . حاول أن يربـط بين ما تعـلمه فى الجامـعة بما رآه فى الـعمل . . وضع أفكاره علـى الورق . . كانت هذه أول تجربة عمـلية له فى البحـث العلمى . . . ليـته احتفظ بـصورة من هذا التقـرير الذى مدحه من قرأه وأثنى على المجهود الذى بذل فيه .

تقاضى الفـتى أجرا عن الشهر الذى أمضاه فـى رحاب معمل التكرير . . . خمســـة عشر جنيها . فـرح بها الـفتى كثيرا . كان لها مـــذاق حلـــو ، خــاص ، إنه أول أجـر يأخذه لقاء عـمله وفكره . . . احتـفظ بأول جنيه منـه - ذكرى للأيام الجميـلة التى قضاهـا بالسويـس . . . « موظفا » مـبتدئا مـتدربا فى الـصباح ، وسائـحا متجـولا بعد الغـروب . . فرح زملاء الـفتى أيضًا بـهذا الراتب المجزى ، لقاء الأيام التى قضوها فى هذا البلد الكريم . . والتى شـاهدوا فيها تجربـة للعمل الجـاد فيما بعد . وكـانت أيضًا فرصة كبيرة لهم للإنطلاق والترفـيه بعيدًا عن أهاليهم . . . فكانوا

يقضون معظم الليل يسمرون . . وكانت ضحكاتهم ونكاتهم تمزق سكون الليل . . . هذا السكون الذى كان سمة واضحة من سمات الضاحية التى أقاموا فيها . . . كان العاملون بالمعمل يريدون أن يأخذوا قسطهم من الراحة ، ينعموا بالهدوء . بعد تعب النهار وإرهاقه . . ولاشك أن هؤلاء الفتية قد أنقصوا من استمتاعهم بجمال الليل الوسنان .

ويمكن للفتى أن ينسى أشياء كثيرة . . ولكنه لن ينسى ذلك اليوم من أيام التدريب ، والتى وصلته فيه برقية ، أمسكها الفتى وجلا ، وفضها بقلب ملهوف وعينين حائرتين . ويقرأ الفتى : « مبروك ، نجحت فى البكالوريوس ، ترتيبك الأول » ، هذا ابن عمه ، أستاذه الذى تولى أمره - نيابة عن أبيه - خلال دراسته بالجامعة ، يرسل له تهنئته بالنجاح . أعاد الفتى قراءة البرقية مرات . . ضمها فى يده . . كأنه يحتضن كنزا . . شيئًا غاليا . . . وثيقة الفرح . سيفرح أبوه بشدة عندما يعلم الخبر . . لاشك أن الإنتظار قد برح به . ما أجمل أن ينقل إليه نبأ نجاحه . إنه يريد أن يقرأ البرقية الآن بصوت عال ، من السويس . . حتى تبلغ مسامع أبيه فى الصعيد . . . وهل تحتاج قلوب الأحباب ، الآباء والأبناء ، إلى وسائل إنتقال . . . إن نبضة هنا أو زفره هناك لابد أنها تبلغ الطرف الآخر فى الحال . . كان الفتى يريد أن يهدى

لأبيه نجاحه .. كما أعطاه أبوه كل حياته ... قلبه وحبه وعلمه ونصيحته وتوجيهاته .



إن النجاح غاية ووسيلة . فهو نهاية مرحلة من مراحل السعى وبداية أخرى . نهاية حلقة من حلقات الكفاح وبداية أخرى . إن الطريق طويلة ، والمراحل متعددة .. وهى ليست سهلة أو ممهدة .. إن بها أشواكا وحواجز وعقبات . بعضها يسير والآخر خطير .. ولابد للإنسان أن يتخطاها ويتغلب عليها . ويتطلب ذلك إيمانا بالله صادقا ، وثقة بالنفس كبيرة وأخذا بالأسباب ، واستعدادا بالعلم والعمل ، عرقا غزيرا وجهدا كبيرا . قال إديسون : إن النجاح ٩٩ ٪ عرق ، ١ ٪ ذكاء .

فإذا أصاب الإنسان الهدف فإنه يرضى ، ويسعد من حوله ، يفرح به الناس ، يعجبون به ، يحترمونه ، يضعونه فى موقعه الملائم من الإحترام والتبجيل . ثم إن تحقيق الهدف يساعد على بلوغ أهداف أخرى . إن للنجاح لفرحة تغمر النفوس وتعمر القلوب بالتفاؤل والأمل .

أما الإخفاق ... الهزيمة ... فلها مرارة فى النفوس وغصة

فى القلوب ، حتى الهواء الذى يشمه الناس يبدو ثقيلا ، محملا بالحزن وخيبة الأمل .

ولكن . . . هل معنى هذا أن الإنسان لايجب أن يفشل أبدا . . ؟ لا ! لابد أن لكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، كما يقول المثل . فالحياة ليست سعادة مستمرة كما أنها ليست شقاء مقيما . فربما نجح إنسان اليوم ، وأخفق غداً ، ثم عاد ونجح مرة أخرى . « ومن يتصيد يحسب الغنم والخسرا » . . . ولكن ما نوع هذا الفشل والنجاح ؟ درجته ، خطورته ، آثاره ، المجال الذى يحدث فيه - البيت ، العمل ، الحب ، الدرس . . . !!

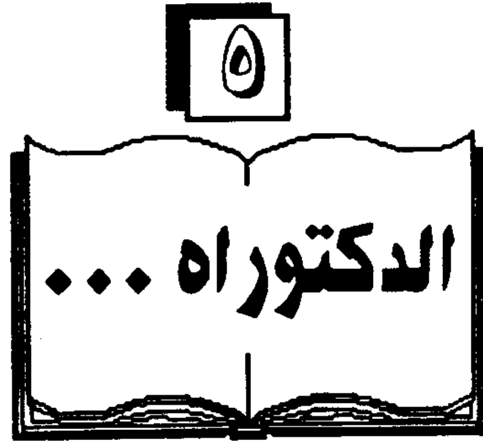
ثم إن الناس يختلفون فى تعاملهم مع الفشل . فأما الشخص الناضج ، فينظر إلى الإخفاق بعين موضوعية ويرى فيه فرصة للتحسين ، للتعلم . يحسه هما ثقيلا يجثم على صدره ، ولكن فى نفس الوقت يجده هدنه يتصالح فيها مع نفسه . يتذوقه سما قاسيا ، ولكن كما قال شوقى « ومن السموم الناقعات دواء » . يراه ناراً تلسعه ، ولكن فى نفس الوقت يضئ نورها الطريق ، يدله كيف يتفادى الفشل فى المرة القادمة ، ويأخذ حظه من النجاح الذى يبغيه . الشخص هنا هو الذى يطوع الفشل ويروضه ويحوله لصالحه .

وأما فريق آخر فتحتويهم الهزيمة .... تسيطر عليهم ... فيستولى على نفوسهم شعور داخلى، عميق بالضياع والعجز وعدم القدرة على تخطى الصعاب مرة أخرى .

يذكر الفتى بكل الأسى أحد أقاربه ، أبناء القرية .. كان صبيا فى المراحل الأولى للتعليم .. لم يكن يميل للمدرسة كثيرا .. كان يفضل عليها الحقل ... لم يكن يميل للقراءة . كان يفضل عليها الزراعة ... كان يستهويه الشغل البدنى أكثر من الإنشغال الفكرى . رسب الصبى فى إمتحان آخر العام .. غضب الأهل ... ووصفوه بالإهمال .. أطلق عليه البعض لفظ الراسب ... كان البعض ينادونه « ياساقط » . صدم الولد فى نفسه وفى أسرته .. إشتد به الكرب .. طفح الكيل بالولد ... ماذا فعل ؟ سكب على جسده صفيحة غاز ، وأشعل فى نفسه النار حتى مات ... حاولوا إسعافه ولكن قدر الله المحتوم نفذ ... حزن الناس .. ندم الأهل .. ولات ساعة مندم ... لاحول ولاقوة إلا بالله . كان صبيا متفتحا للحياة ... حباه الله بسطة فى الجسم ... فكان يطاول الرجال وهو بعد فى المدرسة الإبتدائية .. انظر كيف يجنى الناس على أولادهم . أين التوجيه والإرشاد ؟ الكلمة الطيبة ، الحكمة والموعظة الحسنة !

سمع الفتى إحدى الأغنيات الأمريكية أثناء بعثته . . . كان يغنيها المطرب المشهور سيناترا ، تقول : إذا تعثرت مرة ، وانبطحت أرضا على وجهى ، فإنى أقوم مرة أخرى ، نعم . . . يواصل الإنسان السعى . . . يقوم . . يضمد جراحه ، يلم شعثه ، يستجمع أفكاره ، يستعيد نشاطه ، يضع خطة أفضل ، أكفأ ، يمضى فى طريقه نحو هدفه مرة أخرى .

كتب الفتى مرة وهو فى المرحلة الأخيرة فى الجامعة بمصر ، وقبل أن يسمع هذه الأغنية بسنوات . . . وكانت هذه عادته يفزع إلى الورق يسجل فيه أحاسيسه وأفكاره وخواطره . كتب يقول : أحرص على انتصاراتى التى حققتها بفضل الله بعد جهد مضن وكفاح دام سنين ، كنت خلالها أزيل من طريقى ما يصادفنى من عقبات . كنت أستجمع إرادتى وعقلى وقواى وأمزجها بعرقى الحار . . وأسير ، ولا أبالى بما يعترضنى من شوك . . ولاأقف إذا جرحنى هذا الشوك لأتألم أو أنظر إلى الدماء وهى تسيل ساخنة . وإنما كنت أضع يدى على جرحى وأمضى فى كبرياء وعزم وتصميم .



﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ﴾

سورة الكهف ٣٠

☆ ☆ ☆

كلما كانت الآمال كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام

☆ ☆ ☆

وما نيل المطالب بالتمنى

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

خطوة كبيرة تلك التى خطاها الفتى بحصوله على إجازة الماجستير . وحاجز كبير ذلك الذى قفزه ، ليس فقط بحصوله على الشهادة ، ولكن أيضًا بتقدير الآخرين وإعجابهم به وتمنياتهم له بمزيد من النجاح .

قويت ثقة الفتى فى نفسه . وبدأ يعد العدة ليخطو خطوه أوسع ، ويتعدى حاجزا أكبر . . . إنها الدكتوراه . . . الفلسفة . . . الإنتقال إلى مرحلة راقية للفكر والبحث والتنظير .

دار الصيف دورته . وأخذ الفتى قسطه من الراحة والإستجمام . وإستعد لكى ينطلق مرة أخرى بنفس الهمة والنشاط . . . واضعا أمامه أهدافا سامية وآمالا كبارا .

وإستمر الفتى يتردد على قاعات الدرس ، ويختلف إلى الأساتذة الذين أحب كثيرا منهم وأعجب بكثير منهم - كما تقدم - وإن كانت قلة منهم لم تحظ بإعجابه أو حبه . ولكنه كان يقدر للجميع مجهوداتهم .

لقد عوده أبوه أن يحترم أساتذته ومربيه . وقد كان الفتى يرى حب الناس لأبيه - أستاذهم الذى علمهم وأدبهم ، كانوا يكلمونه بود ، وينظرون إليه بإعجاب ، ويدعون له بسخاء .

وكان بعضهم يحاول تقبيل يده . . . وكان الرجل يتلقى كل ذلك بامتنان بالغ ، فتدمع عيناه ويبادلهم ودا بود ، وترحابا بترحاب .

كما كان الفتى يرى حب أبيه لأستاذه الأول . قابله مرة فى صعيد مصر ، عندما كان صبيا صغيرا . كان يصلى فى المسجد مع أبيه . . . رأى شيخا طاعنا فى السن يتوكأ على عصا غليظة . ورأى أباه يتقدم من الشيخ ويسلم عليه بأدب ويكلمه بود وإكبار، ويدعو له بحب وتقدير . قال الأب للصبى : هذا فلان ، أستاذى . . . . أول من تلقيت عنه العلم والأدب . . . أطرق الشيخ ممتنا ، وأجال نظره بين الأب والإبن ، ودعا لكل منهما .

كذلك كان الأب يحكى لابنه عن أساتذته . . . منهم مثلا على الجارم ، الشاعر الكبير الذى تتلمذ عليه الأب فى الجامعة . . . كان - كما وصفه الأب - مثالا للأستاذ الجامعى ، قوى الشخصية ، غزير المعلومات ، حلو الحديث . . . وضع الإبن صوره كريمة فى خياله لهذا الأستاذ . . . حتى تعرف عليه بعد ذلك من خلال أشعاره . . . فى كتب المدرسة . . . . أحبها ، حفظها ، رددها . . .

شىء رائع أن تتواصل الأجيال . . . هذا يأخذ عن ذاك . . وذلك يعطى للآخرين . انها الحياة المستمرة . . . والبحث الدائب

عن المعرفة والتربية السليمة . وهكذا يوصينا الرسول الكريم ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا » . وهكذا يعلمنا أبو الدرداء عندما كان يحرث الأرض . فقيل له أتزرع وأنت شيخ كبير ؟ فقال : لا ضير ، لقد زرع آباؤنا فحصدنا نحن ، وكذلك نغرس فيحصد أولادنا . ومن أحسن غرسا ممن يعلم الناس . . . ومن أفضل عطاء من الذى ينمى العقول ويفتح الأبصار والمسامع والقلوب للمعرفة . . . لقد قدم شوقى العلم على المال فقال بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم . . لم يبن ملك على جهل وإقلال .

لقد كان للأساتذة الأوائل فى حياة الفتى أثر كبير . فإلى جانب أبيه ، أستاذه الأول ، تتلمذ على أساتذة أفاضل ، فى المراحل التعليمية المختلفة ، حتى قبل المدرسة الإبتدائية أرسله أبوه إلى مدرسة كان اسمها مدرسة النجاح . . . أليس هذا فألا حسنا ؟ كان أبوه يحب الأسماء الحسنة البهيجة المتفائلة . . . وكان يريد أن يغرس فى نفس ولده حب العلم مبكرا . .

يذكر الفتى مدرسى اللغة العربية على وجه الخصوص . . والذين تركوا فى نفسه أثرا عميقا . لقد أحب هذه اللغة الجميلة لحب أبيه لها . كان أبوه يتكلمها بطلاقة . . يجيد قواعدها ، يتقن بناءها ، يعرف أسرارها . تجرى على لسانه طيعة سهلة بليغة . . .

كان الأب يلقنها لإبنه ، يغرس فيه حبها . . يقرأ عليه الشعر ، يطلب منه الإعراب . . يصحح له أخطاءه . . يغضب إذا وجد خطأ فى النحو . . . وكان المدرسون على نفس المنوال . . . كثير منهم كان يعطى للتلاميذ عطاء سخيا . . .

يذكر الفتى بامتنان وإعجاب شديدين ذلك المدرس الذى كان يشرح اللغة العربية شرحا وافيا . . ثم يحث تلاميذه على حفظ مقاطع القراءة والنصوص . . ويطلب منهم الإعراب . . يسألهم ، يستثيرهم ، ينشر جوا من المنافسة العلمية بينهم . . . كان التلاميذ - ومنهم الفتى حين كان صبيا صغيرا - يتسابقون للإجابة . يرفعون أصابعهم ، ينتظرون أدوارهم ، يصغون لإجابات الآخرين ، يحاولون أن يقولوا أحسن منها . . . ملحمة رائعة من العمل الجماعى كان هذا المدرس رائدها . . أليست هذه هى الطريقة الحديثة للتعليم . . كانت عندنا زمان فى الصعيد . . ! كان الفصل أشبه بفرقة موسيقية منسجمة تعزف لحنا جميلا ، كان هذا المدرس «مايسترو» بارعا يلهب حماس تلاميذه ويحرك مكامنهم ويطلق طاقاتهم ، بحركة خفيفة من يده ، أو هزة عنيفة من رأسه ، وكانت له كلمة لطيفة يقولها بعد أن يصل التلاميذ إلى الإجابة الصحيحة : « بس ، ولا كلمة » . فيغرق التلاميذ

فى الضحك، ويبتسم الأستاذ سعيدا . . وينتقل إلى نقطة أخرى ، والتلاميذ يتبعونه سعداء ، راضين ، محبين له وللغته الجميلة .

ولن ينسى الفتى ذلك الشيخ الوقور الذى تتلمذ عليه فى المراحل الإبتدائية الأولى . كان متدفق العطاء ، ينسى نفسه إذا كان يشرح الدرس . . . يسأل . . يحاور . يتأكد أن التلميذ فهم ووعى . .

يخيل للفتى أن هؤلاء المدرسين كانوا يحبون المواد التى يدرسونها - وأكثر من ذلك وأهم منه . . كانوا يرغبون بإخلاص أن ينقلوها لطلابهم ، ويفعلون ذلك بأمانة ، ويبذلون فيه جهدا كبيرا .

كذلك يذكر الفتى بكل الود والإعجاب إمام المسجد الذى كان يصلى فيه الجمعة ، كان أستاذا جليلا ، وخطيبا مفوها ، وداعية فذا يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . كانت خطبة الجمعة التى يلقيها وثيقة أسبوعية ، بلاغا للناس ، جرعة قوية تدعوهم لما يفيدهم فى دينهم ودنياهم . لم يكن يقرأ من ورق أمامه . . وإنما كان الكلام يجرى على لسانه بفتوح من الله . . كأنه عقد من الذهب منتظم الحلقات . . كأنه الماء الجارى . . . حديث بسيط ، سهل ، رائع المعانى ، يفهمه العامة والخاصة . .

فإذا قضيت الصلاة كان هذا الإمام صديقا للناس ، مدرسا لأبنائهم الطلاب لايبخل عليهم بعلم ، ولايضن عليهم بوقت ، ولايدخر جهدا لتعليمهم وتبصيرهم بالأمور التى تنفعهم فى مستقبلهم .

حتى مدرس اللغة الإنجليزية الذى استدعاه له أبوه ليلقنه دروسا خاصة فى المرحلة الإعدادية . . . كان هذا المدرس يجئ إلى الصبى ، مجهدا ، متعبا من كثرة ما أعطى من دروس . . . وكان يرتمى على الكرسى ، ويفتح الكتاب ، ويقرأ عنوان الدرس . . . وكانت للصبى سبورة وضعها له أبوه فى صالة كبيرة بالمنزل . . . فيقوم الصبى إلى السبورة يشرح عليها الدرس . . . ولايلبث أن يفعل ذلك حتى ينام المدرس . تنسدل رموشه ببطء ، وتغمض عيناه تدريجا وتميل رأسه قليلاً ، ثم تنكفئ على صدره . . وأحيانا كان يغط فى نومه حتى ليحدث شخيرا عاليا . . . لايقطعه إلا أن يوقظه الصبى ليسأله سؤالا . . أو حين تجئ الخادم بالشاى ، أو عندما ينتهى الصبى من شرح الدرس . . فيخبر المدرس بذلك . . . فيصحو هذا ويلملم أوراقه ويمضى . . ربما لدرس آخر . . !!

وقد نختلف مع هذا المدرس ، وقد يلومه البعض ، وقد ينكر

عليه البعض الآخر سلوكه . . . فالإلتزام واجب ، واليقظة ضرورة ، والإنتباه التام مهم للمدرس كما هو مهم للطالب . . .

وربما تضايق الصبى من نوم مدرسه ، أو ربما أسعده ذلك لأنه لم يتنبه لأخطائه ، ولن يكلفه بواجبات أو يزعجه بأسئلة أو يضيق عليه الخناق باختبارات . . .

ولكن مع هذا كله ، كان الصبى - وخاصة بعدما كبر ونضج - لايحط من قدر هذا الأستاذ ، بل إنه كان يقدره ويشكر له أنه جاء راغبا طائعا ليعلمه . . وربما قال كلمة أو اثنتين ، درسا أو اثنين . . . استفاد بهما الصبى ، ونفعاه بعد ذلك فى إمتحاناته أو حياته أو علاقاته .



فليقبل الفتى إذن على العلم ينهل منه ما استطاع . . ولينكب على كتبه وأوراقه يدرسها ، يلتهمها ، وليثبت وجوده ، وليمض للمنافسة مع أقرانه . . . ليتقدم ولايخش شيئًا . . .

مجمع كبير ذلك الذى وجده فى جامعته الأمريكية . طلاب من كافة أجناس الأرض . . . هذا عربى وذلك أمريكى وثالث هندى . . . هذه فرنسية وتلك كورية وأخرى من جنوب

أفريقيا . . . جمعهم على إختلاف جنسياتهم ومشاربهم ونحلهم وخلفياتهم ، هدف واحد . . مزيد من العلم والمعرفة والرقى .

خاض الفتى إمتحانات كثيرة - ذكر بعضها مبكرا - واعتاد أن ينظر إلى الإمتحان على أنه فرصة وليس تهديدا . حلبة منافسة وليس تأديبا . ميدان سباق وليس مصيدة للأخطاء .

ها هو يعد للإمتحان عدته . . يقرأ ويبحث ويستمع . . يكتب ، يتأمل . . . وهذه بحوث فرعية يكتبها . . أوراق كثيرة كتبها . أحس أنه مؤلف ، يصنع الأفكار . . . مهندس أداته العلم . . يطوعه بقلمه وعقله . . يصوغ وجهات نظره . . ينقد . . يبتكر . أحس بالفخر ببعض الأوراق التى كتبها : « الفقر فى أمريكا . . نقطة التعادل . . المسئولية الإجتماعية لمنظمات الأعمال . . المنتج ٩٩ من لعب الأطفال . . التغيير والتطوير . . » .

لم يكن الأمر سهلا بالمرة . . وإنما كان هناك عرق وجهد وكفاح . . إنه سباق مع الوقت الذى يجرى . . . الذهب الغالى . . . السيف الذى إن لم تقطعه قطعك . يذكر الفتى أنه عندما كان فى السنة الأخيرة بالجامعة فى مصر ، كان يضع أمام عينيه هدف التخرج . . وكان يحس أن الوقت يمضى به سريعا .

فكتب على جميع كتبه عبارة مـا زالت ترن فـى أذنيه فى أمريكا « أنا أجرى ، والزمن يجرى ، وكلانا فى سباق » .

كان يشـعر مرات كثيرة بـالإرهاق . . ليس الجسدى فـقط من كثرة الذهـاب والإياب للجامعـة ، والتردد على قاعـات البحث ، والتنقل بينها وبين المكتبات . . . ولكن أيضًا الإرهاق الذهنى . . . وكان يأخذ قسطة من الراحة . . يسافر فى عطلة الأسبوع إلى بلدة مجاورة ، أو قرية صغـيرة ، أو شاطئ ممتد . . يستمتـع بالشمس والهواء والماء . . يجدد نشاطه ، يغـير روتين حياته . . يعد العدة لفكاح جديد .



إنخرط الفتى فى مجتمعـه الأمريكى . . إكتسب عادات كثيرة جـديدة . . . أصبـح الصعيـدى أمريـكيا . . . كون صـداقات عديدة . . . تـعرف على أسر كـثيرة . وكانت إحـدى هذه الأسر تعتز به كـثيرا . دعته مرة فى عيـد الشكر ليتناول طـعام العشاء ، الذى يـتكون عادة مـن ديك رومى كبـير ، يلـتف حوله أعـضاء الأسرة يشكرون الله الـعلى القدير لما رزقهـم من طعام . . . وإذا كنا نسمى هـذا الديك روميا ، فإن الأمريكيين يعرفـونه بالتركى ! وأما الأتراك فـيسمونه هـنديا . . . كما يطـلق عليه الـشوام اسم

الحبشى . جنسيات كثيرة اكتسبها هذا الديك ، ولم لا فهو ديك فخم ضخم فاخر ، يعجب به الناس فى كل مكان . أما الحلوى فهى غالبا قرع عسلى . . يجتمع الناس فى هذا العيد ، يتزاورون ، ويأكلون ويسمرون ، ويحتفلون ، ويتبادلون التهانى وحلو الأمانى .

كانت أسرة صغيرة تتكون من محام كبير وزوجه . كان الرجل فى الستين من عمره . يحب مصر كثيرا . . . زارها منذ زمان . . فى العقد الثالث من هذا القرن . يذكرها بكل الود ، يتحدث عنها بشغف ، يصف آثارها الخالدة بإعجاب ، يحلم بشوق شديد أن يعود إليها مرة أخرى . وكانت زوجه سيدة رقيقة ، عميقة التفكير ، إجتماعية ودودة ، تحب من حولها ، وتحب الحياة .

كان أبناؤهما كبارا ، تفرقت بهم السبل . يعيشون فى ولايات أخرى . أصبح الفتى وكأنه ابنهما . يحيطانه بالرعاية والحب . يسألان عنه إذا غاب . يهنئانه إذا نجح . يشجعانه ، يتتبعان أخباره . . . إستمرت صداقتهما للفتى حتى بعد أن انتهى من دراسته وغادر البلد . كان هذان الزوجان نموذجا للحب والتعاطف ، لم يكن الفتى يحس معهما أنه غريب . . . كان كأحد أفراد العائلة .

زاد إعجاب الفتـى بالرجل عندما تقاعد هـذا ... فلم يمكث في بيته يجتر ذكرياته ، كما يفعل كثيرون فى أنحاء الأرض . وإنما قرر أن يدخل الجامعة من جديد ! فوجـئ الفتى بالرجل فى بداية عام دراسى جديد ... يـوم التسجيل ، ذلك اليـوم الذى يذهب فيه الطلاب لتسجيل أسمائهم وإستلام بطاقاتهم الدراسية وهوياتهم الجامعية . سجـل المحامى الكبير اسمه فى ماجسـتير التاريخ ... أخذ صحيفة التسجيل .. وبدأ يكتب بياناته .. وعندما وصل إلى بند الـعمر قال للفـتى مداعبا : هل أذكـر لهم عمرى الحقـيقى ؟ وكتب أربعة وستين عاما !

وهل هناك سن معينة يتوقف فـيها الإنسان عن طلب العلم . قال النبى ﷺ : « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . فلينهل هذا الرجل من العلـم ما إستطاع . بل إنه ربما يفيد مما يـتعلم أكثر مما يحصل طـالب فى شرخ الشباب . لأنه جاء إلـى الدرس طائعا مختارا ، ولـيس للحصول على شـهادة أو ليبحث عن عـمل بعد ذلك . فهو يعـيش عيشة رخية ، ويمتلك مـنزلا ، وإنما أراد فقط أن يستغل وقته فى شىء مفيد .

وهذه إحدى الـطالبات .. تدرس للـماجستير أيـضًا .. إنها زوجة ، وأم لأربعة أطفال ، وتعمل لتكسب قوتها وتساعد زوجها

. ورغم كل هذه المسئوليات فإنها تدرس وتواصل تعليمها . كانت تذهل الفتى بنشاطها وحيويتها . تجرى إلى المكتبة . . . وتسعى إلى قاعات الدرس . . . تكتب بحثا . . تؤدى إمتحانا . . تسرع للحاق بالعمل . . كانت شعلة نشاط . . .

أعادت هذه المرأة إلى ذهن الفتى ، الفلاحات اللاتى يعملن فى حقول مصر . كان يراهن فى حقول أخواله . . زوجات وأمهات وعاملات . . يعملن بجد وإخلاص يضارعان جد الرجال وإخلاصهم . بل ربما فقنهم صبرا وجلدا ، فى شئون كثيرة . . كتربية الأطفال ، وأشغال الإبرة ، وصنع كثير من المنتجات . كان الفتى - فى مراحل عمره المبكرة - ينظر بتأمل كبير للنساء اللائى يشتغلن بالإبرة . كان يتابع ببصره تلك الخيوط المتفرقة تتآلف بين أصابعهن لتصبح نسيجا بديعا . هذا شال وتلك « بلوزه » . كيف تستطيع هذه الأصابع الماهرة أن تجمع هذه الخيوط المتناثرة والألوان المبعثرة ، وترسم منها لوحة منسجمة رائعة !

إنه العمل . . شغل وقت الفراغ . . ألم يوصينا النبى ﷺ بالعمل . . وبأن من بات كالا من عمل يده ، بات مغفورا له . وأن اليد العاملة الخشنة المعروقة ، يد يحبها الله ورسوله .

أجل . . إنه العمل . . الجهاد . . . ألم ير الفتى أباه يعمل

طول عمره . . حتى بعد أن تقاعد . . لم يمكث فى بيته ويستسلم للأوهام . هذا الجامعى القديم ، المعلـم القدير ، المدير الكبير . . قام وسعى واشتغل . . كان الصـبى يراه وهو يخرج مع أول خيط من النور فى الصباح ، كالجمل الصـابر ، كالجبل الصامد ، يلبى نداء ربه للعمل ، ويطيعه جل وعلا فى أولاده ، يوفر إحتياجاتهم . ويسهر على راحتهم ، لقد كرس لهم كل حياته . . .

فليعـمل الفتى إذن ، ليجـاهد كما علمـه أبوه . . وكما رأى رجالا جادين يعملون ، ونساء مخـلصات يعملن ، فى مصر وفى أمريكا . . . وليمض فى طريقة قدما وعناية الله تحرسه .



وثق الفتى مـن نفسه . . إنتظمت حيـاته الدراسية . . درس عدداً كبـيراً من المواد المطلـوبة لبرنامج الـدكتوراه ، وانتهى مـنها جميعا . وبدأ يعـد العدة لينجز إنجازين تالين ، أولـهما الإمتحان الشامل ، والثانى مشروع رسالة الدكتوراه .

فأما الأول فقد سهر ليالى كثيـرة يجهز له ، قرأ كتبا كثيرة . . تأمل وفكر وبحث واستوعب وتساءل !! ولاشك أن هذه القراءات قد أسهمت كثيرا فى تكثيف مـعلوماته ، ولكنها أيضًا - وهذا هو الأهم - أضفت على شخصيته طابـعا جديدا . إنه يتعلم ويعلم ،

ويتبادل الأفكار مع أقرانه ، ينظر إلى ما يقرأ بعين فاحصة وعقلية ناقدة . ألا يسمونها دكتوراه الفلسفة ؟ لن تكون فيلسوفا بسهولة ! يجب أن تمعن النظر فيما تقرأ وتسمع . . . هل هذه النظرية صحيحة ؟ لماذا ؟ هل أدت مهمتها ، تقادمت !! هل يجب أن تستجد نظرية أخرى غيرها ؟ هل لتغير الزمان والمكان أثر على تطبيق النظرية والنتائج المترتبة عليها ؟

وهكذا يستمر العلم وتتواصل الأجيال - هذا يخرج بنظرية ، وذلك يثبتها ،وثالث يدحضها ، ورابع ينقدها ، وخامس يأتى بخير منها . . . هذه نظرية تتقادم ، وتلك نظرية تحل محلها . هذه تصلح فى مجالات ومناطق وثقافات معينة ، وتلك تطبق فى مجالات أخرى . هذه نظرية واسعة الإنتشار ، وتلك ضيقة الحدود . وهذه قابلة للتطبيق فى الواقع العملى ، وتلك مثالية لابد من توافر شروط معينة لتطبيقها . هذه يقبلها الناقدون ، وتلك يرفضونها ، وثالثة يعدلونها . . . إن النظريات تفتح أبواب الفكر ، تمهد لبحوث تالية . . . وهذه البحوث تفرز بدورها نظريات أخرى تتمخض عنها أبحاث جديدة ، وتفتح مجالات أخرى للبحث والتفكير .

عصر الفتى ذهنه ، وتفاعل مع أفكار الكتاب والباحثين ،

وحصـل معـلومات كـثيرة ، واسـتنـتج أفكـارا غزيـرة . ودخل الإمتـحان الشامـل . كان جزء منـه تحريرا والآخر مـشفاهة فـأما الأول فأنــت تفكر فـيه عـلى الـورق ، تكتب مــا يسعـفك به عقلك . . . كانت تـرن فى أذنى الفتى دائما كلمـات أبيه ، عندما كان يوجـهه للإمـتحانات وهــو صبى صـغير . . . إقرأ الأسئلة جيـدًا . . . إفهمها . ألا نقول الآن إن المشكـلة المعرفة جيدا تعتبر نصف محـلولة ؟ إن اليابانيـين اليوم - من ضمن أنماط سـلوكهم الناجحــة - يفهمــون الموقـــف جيدا ، يدرسون المشـكلة على مهل . . يـجمعون بيـانات ، ولايتخذون قـرارهم إلا بعد تفـكير وتحليـل عميقـين ، ولكن ما أن يصـلوا إلى قرار فـى الأمر الذى ينظرونه ، حتى ينطلقوا بسرعة ليحققوا أهدافهم .

كان والد الفتى سابقًا لأوانه ، عميق التفكير بعيد النظر . . . إقرأ الأسئلة جيدًا . . فكر فيها وتمـهل . . ثم إكتب إجابتك بنظام وتنـسيق . . ثـم إقرأ ما كـتبت وراجـعه لـتتأكـد من صحـته . . لاتتـعجـل ، ولكن فــى نـفس الوقـــت إحسب الـزمن المتاح للإمتحـان ، فلا تكــن إجابـة سـؤال على حسـاب إجابة سؤال آخر . . . ابدأ بالــسؤال السهل الذى تـعرف إجابته جيـدًا . . انته منه ، ثم خذ السؤال الذى يليه فى الصعوبة . . . وإجعل أصعب

الأسئلة آخرها . . بعد أن تكون قد أجبت عن الأسئلة التى تجيد إجاباتها وحصلت على نقاط تضمن نجاحك . . ثم خذ السؤال الصعب . وفكر فيه مليا وابذل جهدك فيه بإخلاص . . . لاتترك سؤالا بدون إجابة . . حاول . . فكر . . إسترجع معلوماتك . . أليس الإمتحان جزءاً من العملية التعليمية !

كان الفتى يكتشف حكمة أبيه يوما بعد يوم . ربما لم يكن يفهم كثيرا من نصائح الرجل وتوجيهاته ، وربما كان يضيق بها أيضًا ، عندما كان طفلا صغيرا . ولكنه اكتشف فيما بعد صحتها وسلامتها والقيمة الغالية فيها . أليست الحياة اكتشافا مستمرا للحقائق ، وسبرا دائما للأغوار ، أهمه اكتشاف النفس !!

أما الجزء الشفهى من الإمتحان فأنت تجلس أمام عدد من الأساتذة المتخصصين ، يسألونك وينتظرون إجابتك ، لايبحثون فقط عن الإجابات الصحيحة ، ولكن أيضًا يفحصون شخصيتك ، يدخلون إلى نفسك . كيف تنصت للسؤال ؟ كيف تتلقاه . . هل أنت خائف ، متردد ، واثق !! كيف تجيب ، كيف تعبر ؟ هل تتلعثم ، هل تثرثر بلا داع . . تختصر ، تفيض ، تخرج عن الموضوع . . هل تربط كلامك ببعضه !! ما رأيك فى هذه القضية ؟ ماذا تقول فى هذه المشكلة ؟ اذكر لنا لماذا تعتبر هذه

النظرية غير صحيحة ؟ هل تعتقد أن ما جاء بنظرية كذا أصوب مما كانت تقوله نظرية كذا ؟!

دخل الفتى هذين الإمتحانين مرتين . . فأما فى الأولى فكانت رأسه تزدحم بمعلومات كثيرة وضعها على الورق ، وعبر عنها باقتدار أمام الممتحنين . ولكن هؤلاء كانوا يبحثون - كما قالوا له بعد ذلك - عن روابط بين هذه المعلومات الغزيرة ، عن المفاهيم النظرية والفلسفية . إذن ليعط الفتى هذه النقطة ما تستحق من اهتمام ، وليتقنها ويتفوق فيها فى المرة القادمة .

نعم كانت إجابته فى المرة الثانية مرضية جداً . . إجتاز الإمتحان المكتوب ، وحصل على إعجاب الممتحنين فى جلسة الإستماع . أنصت إلى أسئلتهم . . أجاب عنها بتسلسل منطقى ، ربط وحلل وقارن . . أدار حوارا مع أساتذته . . كانت جلسة علمية شائقة . ما الفرق بينها وبين الجلسة السابقة ، الإمتحان الأول ، كان - كما قال له أحد الأساتذة - كالفرق بين الليل والنهار .

أصبح الفتى الآن مؤهلا لأن يكتب مشروعا للبحث . رسالة الدكتوراه . هذه آخر حلقة من حلقات الدراسة . مضى الفتى جادا يختار الموضوع الذى يريد أن يبحث فيه . قرأ كثيرا ، انتبه

للموضوعات التى يهتم بها الكتاب . أصغى جيداً لأساتذته ، اطلع على بحوث سابقة كثيرة . . قارن بين هذه البحوث ، ربط بينها ، حاول إختيار أنسبها . . عرض الفكره التى توصل إليها على أستاذه - المشرف على الرسالة . أعجب المشرف بها . . أثنى عليها . . ناقشة فيها ، أبدى إقتراحات مفيدة بشأنها .

إنتهى الفتى من إعداد مشروعه . . . عقدت لجنة إستماع لمناقشة المشروع . . . دعى إلى هذه اللجنة مجموعة من الأساتذة والمفكرين من كليات مختلفة وتخصصات متنوعة . . كانت بحق جلسة أفكار . تكلم فيها الحاضرون بقلوب مفتوحة وعقول مستعدة للبحث العلمى . . أثنى الأساتذة على المشروع . . سألوا الفتى عن الأسلوب الذى سيتبعه فى دراسة الموضوع ، والنتائج التى يتوقع الوصول إليها ، والوقت الذى يتمكن فيه من تحقيق هدفه . . عرضوا على الفتى اقتراحاتهم . . تمنوا له التوفيق والسداد . . وافقت الجامعة على المشروع . . وبدأ الفتى بحثه الميدانى .

قابل الفتى فى بحثه هذا صنوفا من المديرين بالشركات الصناعية التى اختارها عينة للدراسة . وكان لكل من هؤلاء المديرين نمط إدارى وشخصى لابد له أثره على العمل والعلاقات

والنتائج التى يحصلونها . لـقد كانت خبرة كبيرة فى حد ذاتها أن يقابل الفتى هؤلاء المديرين ويتحدث معهم وينصت إليهم .

كان منهم المدير المنظم - رجل الأعمال - الذى تلمس نموذجه الإدارى قبـل أن تراه . فهـو مـحـدد الحـديث علـى الهـاتف ، يسـتـفسر ، يسـأل عن الهدف . . . عـن مدة المقابـلة . . . وتجده ينتظـرك فـى الموعـــد ، يرحـب بك ، يـقدم لك ما تطلـبه من بيانات . . . وبـعضهم كان يعقد المـقابلة فى غرفة الإجـتماعات - وليس بمكتبه - ويطلب من السكـرتيرة عدم إزعاجه بمكالمات هاتفية أو زيارات حتى تنـتهى المقابلة . وكانـت الكثرة ممن ضمنتهـم عينة البحث من المديرين من هذا النوع .

وكان هـناك المدير الـودود - الإجتمـاعى ، المحب للـناس ، الذى يقـدرك ويعتبرك قـيمة غالـية فى حد ذاتك . كـان من هذا النوع شـاب فى التاسعة والـعشرين من عمـره . سعد كثيرا بـلقاء الفتـى ورحب به بحـرارة ، وانسجم مـن موضوع رسالـته . . . وأفاض فى الإجابة عن أسئلة البحث وقدم له القهوة تلو القهوة . ولم يـكتف بـذلك . . . بل إنــه دعاه إلى طـعام الغـذاء ، ودعا مجمـوعة من المديـرين - بهذه المنـاسبة ، مديـر الصيانـة ومدير المشتريات . . . وذهب الجميع إلى مـطعم مجاور ، وطعموا وهم

يتناقشون ، وعادوا إلى الشركة ومعهم الفتى ، حيث أكمل حديثه مع المدير . إهتم هذا المدير بالفتى لشخصه ،وإعتبره ضيفا عزيزا عليه . . وسأله بدوره أسئلة كثيرة . . عن حياته ودراسته وحاله الزواجية . . . وكأنه عثر على صديق مخلص فبثه كل صداقته .

وكان هناك المدير الباحث - المفكر ، المتأمل . . . كان يحاور الفتى ، يناقش النظرية يستعرض الفروض . . . يقدم البيانات المطلوبة ، وفى نفس الوقت يستفسر ويستعلم . . . كان كالباحث عن الحقيقة ، يفكر قبل أن يتكلم ، وينصت جيدا لمحدثه . . . أنت مع هذا النوع تمارس تمرينا فكريا ممتعا .

وكان هناك المدير التقليدى - البيروقراطى ، الذى يوحى إليك أنه دقيق ، لائحى ، يزن الأمور ويضعها فى نصابها . . . من كلماته : دعنا ننظر . . . لندرس هذا الأمر . . . رئيسى يقول . . . إنهم فى الإدارة العليا يقولون . . . آه . . هذه البيانات سنجدها فى مكتب كذا ، عند فلان . . .

وكان المدير اللامبالى - على الأقل بالنسبة لمقابلة البحث . . . وكانوا قلة من هذا النوع . . . لم يكن المدير هنا متحمسا لإجراء المقابلة . . . كان يجيب عن أسئلة الفتى ، ويقدم له ما يطلبه من بيانات ، دون إبداء أية ملاحظات . . بل إن تعبيرات وجهه لم

تتضمن حماسا أو تعكس رغبة فى التعاون . . . لم يتفاعل المدير مع المقابلة كما فعل غيره ، أو لعل موضوع البحث لم يثر إهتمامه . . أو ربما كان هناك تخوف من إكتشاف أخطاء واطلاع الغرباء عليها .

وكان هناك أيضًا المدير المرتاب ، الذى يشك فى الآخرين ، صادف الفتى واحدا منهم أو اثنين . . رحب المدير بالفتى ، ولكنه كان متحفظا ، يقدم الإجابات عن أسئلة الفتى ، وينظر إليه مليا ، وكأنه يريد أن يكشف خبايا نفسه . بل إنه كان يمتنع عن الإجابة أحيانا ، أو يتباطؤ فى الرد - أو يجيب باختصار . . . كان يضن بالمعلومات ، ولايفصح عنها إلا بقدر ، يفعل ذلك بحرص ، وبعد تفكير تنم عنه قسمات وجهه ونظرات عينيه .

كما كان هناك المدير غير الواثق ، أو الذى يحس بنقطة ضعف ما ، فى أسلوبه الإدارى ، أو فى نظام الشركة القائم ، أو فى العاملين لديه . . . كان أحد هؤلاء المديرين عندما يجيب عن أسئلة البحث ، يقول للفتى وكأنه يعتذر له : نحن لانتبع أسلوبا حديثا ، أو لم أقرأ من قبل فى هذا الموضوع . . . كان متعاونا جداً ، مهذبا ، يقدم البيانات المطلوبة ، ولكنه يشعر أن الأمور فى إدارته أو شركته كان يمكن أن تكون أفضل من ذلك بكثير .

ثم كان المـدير العدائـى ، العصبـى ، الذى لايريد أن يـكون صداقة معك ، وكأنـه يريد أن يتخلص منك ، وأن ينـهى المقابلة بأسرع ما يمكن . جاء مدير من هذا الـنوع إلى مكتبه متأخرا وكان الفـتى قـد وصل فى الموعـد الذى حدده المـدير ، أو قبـل ذلك بدقائق . رحبت به السكرتيـرة ، وقدمت له القهوة ، وأخبرته أن المدير سيـجئ حالا . . ولكنه لم يـظهر إلا بعد ثلاثين دقـيقة من موعده . . . دلـف إلى مكتبـة سريعا . . دعت الـسكرتيرة الـفتى فدلف خلفه مـسرعا . . اعتذر المدير باختصـار شديد عن تأخره ، وأبدى ضيقه من الفتى من اللـحظة الأولى . فتح الفتى أوراقه ، وبدأ يسأل ، والمدير يجيب . . ثم مـا لبث هذا أن نظر إلى ساعته فى عصبية واضـحة . . . والفتى ماض فى أسئلتـه ، والمدير ينظر إلى ساعته . وأحب الفتى أن يلفت نظر المدير أن التأخير لم يكن من جانبه ، وإنما بسبب المدير نفسه . ماذا يقول له ؟ قال فى أدب جم : أنا أعلم أن وقـتك ثمين . . ولكن أعدك لو ركـزنا على ما تبقى مـن أسئلة فسأغادر مكـتبك فورا . هنالك توقـف المدير عن النظـر إلى ساعته ، وقـدم للفتى البـيانات التى أرادهـا . وشكره الفتى لذلك .

ورغم اختلاف هذه النماذج من المديرين ، فإنهم جميعا قدروا

للفتـى بحثه ، وشكروا له زيـاراته ، وإعجبوا بموضـوع رسالته ، وقدموا له - بدرجات متفاوته من التعاون والرغبة - البيانات التى كان يبحث عنها . لذلك فإنه ، بعد أن إنتهى من دراسته ، أرسل إليهم جميعا - مع تحياته وشكـره وتقديره - ملخصا مـركزا وافيا لبحثه والنتائج التى توصل إليها .

كانت ممـتعة حقا تلـك الشهور التى قـضاها الفتى فـى جمع بياناته ، والشهـور التى تلتها حين إنكب الفتى عـلى هذه البيانات يصنفهـا ويجـدولها ويحللـها ، ويشغل فى ذلك الكمـبيوتر الذى فتح له بابه ونمى حبه له ذلك الأسـتاذ الكندى للإحصاء . وبلغت المتعـة ذروتها حين كان الـفتى يجلـس ويكتب رسالـته . إنه الآن مؤلف ، يشرح الواقع العملى ، ويقـارنه بالنظرية ، ويضيف إلى الجانـبين تأمـلاته . ها هــو يذكر آراء المـفكريـن . . . يتفـق مع بعـضهـم ، ويـختلف مــع آخرين . . يـنقـد ويـحلل ويقــارن ويستـنتج . . . كانـت الساعات تمـر والفتى جـالس إلى مكـتبه ، منكب على أوراقه ، مقبل على مراجعه ، يقرأ ويبحث ويكتب . ها هــو ذهنـة يتفتــق عـن أول إنـتاج فكــرى له . . إنه الآن يصنــع . . . تحت التشغيـل . . أوشكت الحضانة أن تـفرخه . . يكتب الفتــى جزءا يسلمه لمشرفه ، يقرأه هذا ويـراجعه ، يضيف

عليه لمسات ، يعيده إليه كان لهذا الأستاذ المشرف ، الدقيق ، الواعى ، العالم ، المستعد دائما لأن يقدم للفتى ما يستحق من وقت وتوجيه وحفز معنوى أثر كبير فى إنجاز البحث . يكتب الفتى جزءا آخر ، يدور دورته . ثم يشرع فى جزء بعده . . إلى أن إكتملت الأجزاء . أوشك الوليد أن يولد .

ذهب الفتى يصور رسالته الكبيرة ، يعد نسخا منها لأعضاء اللجنة ، لمكتبة الجامعة ، لمكتب البعثات المصرى . . . ليقرأ الجميع ما كتبه الفتى . . . وليجدوا فيه فكره وشخصيته العلمية الجديدة . . . وليفيدوا بالمعلومات الغزيرة المعروضة وليلمسوا ما أسهم به الفتى فى ميدان العلم الفسيح .

حددت الجامعة يوما لمناقشة الفتى فى رسالته . . إنعقدت اللجنة ، اكتمل الأعضاء . . . أدار المشرف الجلسة . . . قدم الفتى وأثنى على مجهوده . . . عرض الفتى لرسالته : المشكلة والبحث والتحليل والنتائج المحصلة . . . بدأ الأساتذة يوجهون للفتى أسئلتهم . . . حاوروه ، حاولوا أن ينفذوا إلى أعماق فكره . . كلمهم الفتى ، عبر عن وجهات نظره . . أنصت وفكر . . وقام إلى السبورة وشرح بعض الأجزاء . . أدار مع الأساتذة حوارا رائعا . . اختلت اللجنة بعدها . . ثم خرجت

لتعلن قرارها . . . يمنح الفتى درجة الدكتوراه . . ويدعو المشرف الأساتذة إلى طعام العشاء احتفالا بالفتى وتكريما له . . .

عاد الفتى - الدكتور - إلى بيته ، وأسرع إلى ورق وقلم . . وكتب يناجى أباه : وكما أهديتك شهادة الماجستير من قبل ، أهديك اليوم شهادة الدكتوراه . نعم ، لقد أهدى الفتى مجهوده جميعا ، رسالة الدكتوراه كلها لأبيه ، فكتب فى صفحة الإهداء بها : إلى أبى ، أستاذى الأول . . . كم يود لو طار الآن إلى القاهرة ، وعانق أباه .وقبل يديه الكريمتين . . لقد إنتهى من رسالته . . إنتهت مهمته . . فليعد الآن . . نعم ليعد إلى وطنه الحبيب ، إلى أبويه الرحيمين ، إلى جامعته . . . فليكتب إذن إلى المعهد الدولى الذى أشرف على تعليمه ، وليكتب للمكتب الثقافى المصرى الذى أكمل مهمة المعهد . . . وأخذ الفتى يمهد لنفسه ذهنيا وعاطفيا للعودة إلى بلده مصر .



وكان يوم التخرج . . . يوم تمنح الجامعة الشهادات المختلفة لطلابها . . . وهو يوم خالد فى ذاكرة هؤلاء الطلاب . . إذ ينقسمون إلى مجموعات . . طلاب مرحلة الشهادة الجامعية . . . وطلاب مرحلة الماجستير . . . وطلاب مرحلة الدكتوراه .

إصطف الجـميع فى موكـب مهيب . يـلبسون الأرواب الجامـعية السوداء ، وتـغطى رءوسهـم قبعات مـربعة سوداء ، تـتدلى منـها أشرطة سوداء ممتلئة الخيوط ، تشـبه ذلك الشريط الذى يتدلى من الطربوش المصرى أو التركى القديم ، والذى كانوا يسمونه الزر - أســود أو أزرق . هؤلاء خريـجو الهـندسة ، وهـؤلاء خريـجو الطب ، والـعلوم ، والزراعة ، والـعلوم السيـاسية ، والإدارة ، وعلم النفس . . . وهؤلاء الحاصلون على الماجستير . أما الدكاترة فلهم مـكان مميز مستقـل . وكان ضمن طقوس التـخرج أن يقف الحاصل عـلى شهادة الـدكتوراه . . ويقـرأ أحد العامـلين - أمام رئيـس الجامعـة وعلـى الملأ - نـبـذة صغيـرة عنه : إسـمه ، تخصصه ، الـشهادات السابقة التـى حصل عليها . . . ثم تـنتهى هذه النبذة بأن يعلن رئيس الجامعة منحه لشهادة الدكتوراه .

كان يـوما جمـيلا مـن أيام الربـيع . . . كان الجـو يميـل إلى البرودة ، منعشا ، نديا ، كأنه يرحب بالخريجين ويحتفل بهم . . ولكن الســماء كانت تمتلـئ بالغيوم . . . بدأت إجـراءات الحفل ، وأمطرت السماء مطرا خفيفا ، وهـبت أنسام رقيقة تداعب الوجوه والشعـور . . الجميع واقـفون . . وأهالى الخـريجين وعائـلاتهم وأصدقاؤهـم يجلسـون فى منصـة خاصة بهـم يتابعـون الحفل ،

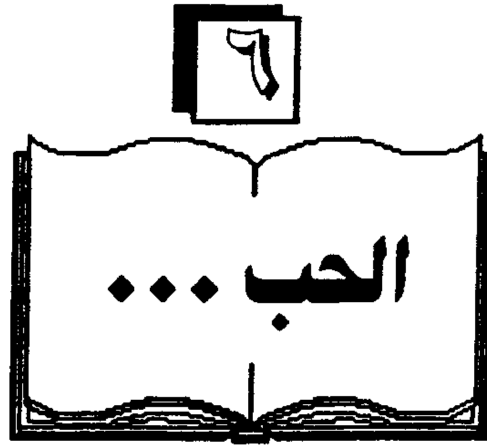
وينظرون إلى أولادهم وأصدقائهم بإعجاب ، وينتظرون تخرجهم بلهفة . . . واشتد المطر . . وقام رئيس الجامعة خطيبا ، يتكلم من تحت مظلة ، يهنئ الخريجين ويثنى على مجهوداتهم . ويتمنى لهم مستقبلا زاهرا . ثم سأل الجموع المحشودة : حيث أن السماء تمطر مطرا غزيرا ، هل تحبون طقوس التخرج القصيرة أم الطويلة ؟ وسمع هديرا من الطلبة الواقفين : القصيرة ، القصيرة . . . فقال : إذن أعلن أن الجامعة تمنحكم جميعا شهاداتكم ، كل فى مجال تخصصه . . . ولوح بيده للحاضرين ، وإنصرف .

صفق الحاضرون ، وهرول الطلبة يحتمون من المطر . . وأسرع الأهل والأصدقاء يتصافحون ويهنئون . . كان هناك شعور عام بالفرح . . . وأحس « الدكاتره » على فرحتهم بشىء من الإحباط . فقد كان كل منهم ينتظر أن يسمع ويُسمع الناس إسمه وتخصصه وإنجازه العلمى . إنها حاجة إثبات الذات ، إعتراف الآخرين ، التى يود الإنسان أن يشبعها . ما أجمل أن يرى الإنسان تقدير الآخرين وإحترامهم له وإعترافهم بإنجازاته !

ولكن لابأس ، ستصل إلى هؤلاء الدكاترة شهاداتهم الرسمية مكتوبا فيها بتوقيع رئيس الجامعة أنهم قد منحوا الدرجة ، ولهم

كافة حقوقها ومزاياها وشرفها . وحتى تعد هذه الشهادات وتوقع ، فقد وصل إلى الفتى - وإلى غيره من الدكاترة أيضًا - كتاب من عميد الدراسات العليا يهنؤه فيه بانتهائه من كافة المتطلبات التى إشترطتها الجامعة للحصول على الشهادة .. ويقول له : إنك تحصل اليوم على إعترافنا الصريح بالمجهود الشاق الذى بذلته . وإنك من الآن فصاعدا ستحمل إسم هذه الجامعة ، بصمتها ، شعارها .. ونرجو أن تكون مثلنا فخورا بهذا الرباط الوثيق . ثم يتمنى له السعادة والنجاح .

أكمل الفتى بفضل الله مسيرته .. ووصل إلى نهاية مرحلة جادة هامة فى حياته .. نهاية حلقة محكمة كانت أشبه بالقلعة الحصينة لايقتحمها إلا جندى همام ، فارس شجاع ... تبدأ بعدها مرحلة أخرى هامة ، حلقة محكمة أخرى .. الحياة العملية ، الوظيفة ، التجارب ، الإختبار الفعلى للشهادة التى تم تحصيلها .



وقد يـنتـقى عـقـــد لنـحر مـؤمل

ويحسن قبل العقد أن يـنتقـى النحر



إذا شئـت أن تلـقى المحاسـنَ كلـها

ففى وجه من تهـوى جميعُ المحاسنَ



فـلولا زفـيرى أغرقـتـنى أدمعـى

ولـولا دموعـى أحـرقتـنى زفرتـى



هل نسى الفتـى قلبه الذى يخفق بين جنبيـه ؟ هل كان يكتم عواطفه التى يجيش بها صـدره ؟ أم تراه إنشغل عن الحب برحلته الدراسية ؟ أم أن نشأته الـصعيدية منعته من ذلك ، حيـث التعبير عن العواطف يكون بحساب وحـذر شديدين ؟ هل لمثله أن يحب ويتزوج ؟

يستعرض الفتى شريط حياته . . أنه إلى الآن لم يستقر . كل مكان نـزل فيه هو مكـان مؤقت . كان فـى مرحلة الجامـعة دائم السفـر ، من الصعـيد إلى القـاهرة . يروح إذا كانـت الدراسة ، ويجئ إذا كانت إجازة نصف العـام . ثم يعود للدراسة ، ويذهب لبـلدهم مـرة أخرى فى الـصيـف . حتى اجـازة الصيـف ، كان يقضيها بين المـدينة والقرية . فمن بيت أبيه فـى البندر ، إلى بيت جده فى الريف . . . حيث الصفاء ، والهدوء ، والخضرة الجميلة التـى كان يراهـا فى عيـون الفـلاحين . كان يـذهب إلى حـقول أخواله ، فـى العصر ، عـندما تنحـسر حرارة الشـمس . . . كان يتعلق بخاله الذى لايكبـره كثيراً . . . يركب « النورج » ، ويشهد بناء الطوب وحرقه ، يشرب الشاى الداكن ، ويجلس قبل غروب الشـمس فى حـديقة خـاله ، يسمـر مع ابن خـالته وأقـاربه . . يقطفون فاكـهة طازجة ، يتندرون ويضحكون ، وينـتظرون نتائج امتحان آخر العام .

هل نجحت يا بنى ؟ يسأله أخواله ، شد حيلك ، إنجح ، ليس لك إلا سلاح العلم . أبوك رجل تعليم ، علم أجيالا . هل ستكون مثله ؟ ياليته يكون كذلك . تظهر نتائج أقاربه فى كليات أخرى . . وهو لايزال ينتظر . . . لماذا تتأخر النتائج هكذا . . . حتى شهر أغسطس . . . الصيف يوشك أن ينتهى . فرحة النجاح لاتدانيها فرحة . . يحوطه أقاربه بالإعجاب . . يحدوه الأمل أن تمر السنوات سريعة حتى يصل إلى نهاية الطريق ، أو بدايتها . . . يكاد الفتى يلهث طول العام ، ذهابا وإيابا وانتظارا .

كتب مرة فى مجلة الكلية مقالا عن انتظار النتائج ، قال فيه ضمن ما قال : إن الإنتظار صعب ، وإنه يصبح جحيما لو أننا كنا نعلم ما سيحدث لنا بعده . . إن من نعم الله علينا أننا نجهل ماذا يخبئ لنا القدر ! لو عرفناه أصبحت حياتنا عذابا . . فلو كان خيرا لقتلنا الشوق إليه ، ولو كان شرا لقتلنا الخوف منه .

كانت هذه عادة الفتى لزمن طويل . . . يفزع إلى قلمه . . يتحرك الأديب داخله . . يودع الورق خواطره ، ويبثه أحزانه . . . كانت كلماته التى تضمها أوراق كثيرة وكراسات مبعثرة هنا وهناك ، كطلقات الرصاص . . . كالزفير الحار . . . يحكى بها سعادته وعذابه ، أفراحه وأتراحه . . . أوراق كثيرة

أسمى بعضها ذكريات ، والآخر يوميات . . . والبعض الآخر قصصا قصيرة . نشر بعضها فى مجلة الكلية التى كان يدرس بها بالقاهرة . . . استوحاها من الريف والحضر . . . غالية ، صابر أفندى ، يوميات شاب ، لم يمت حبهما ، الثأر ، وجاء الربيع ، الحرمان ، فى موكب الجمال . . .

يذكر الفتى أنه عندما كان صبيا صغيرا . . على مشارف المدرسة الثانوية . . . كانت تسكن بجوارهم مدرسة حسناء ، سمراء ، رشيقة ، رقيقة . . . كان يراها من شرفة منزله تروح وتغدو فيعجب بها كلما راحت ، ويعجب بها كلما غدت . . . كان يتابعها بنظراته البريئة . . ونما إعجابه بها يوما بعد يوم . . .

كانت مدرسة لأخته . . . مرة دس الصبى فى كتاب أخته ، رسالة رقيقة للمدرسة الحسناء . . . بثها فيها أشواقا حارة . . كانت تحرقه حين عبر عنها وقبل أن تصل إلى الورق . . وتكاد تحرق الورق المكتوبة عليه . . ولابد أنها أيضًا كانت تحرق من يقرؤها . . كلمات بسيطة بريئة صادقة . . إستعارها من الأدباء والشعراء الذين كان يقرأ لهم . . . كلمات تنم عن قلب بكر يتفتح لأول مرة .

غضبت المدرسة ، أو هكذا أظهرت . . ندم الصبى . . خاف

أن يسمـــع أبوه بالخبر . . كتمـت أخته أمر الرسالـة . . . أعادتها إليه : خذ أوراقك هذه الـتى نسيتها فى كتابـى . . . طوى الصبى أحزانه . . أغرق فى الـتفكير . . ترى هل قرأت المـدرسة كتابه ؟ هل أعجبها ؟ لابـد أنها ضحكت من سذاجة عواطـفة - كما فعل هـو ذلـك بعد فتـرة ! إنها تكـبره بسنـوات . . هل وبخت أخـته لذلك ؟ هل سـعدت بأن أحدا يعجـب بجمالها ويـخطب ودها ، حتى ولو كان صبيا صغيرا ؟! وهرع الصبى إلى كتبه وكراساته . . يقرأ ويدرس . . . فالإمتحانات قـادمة . . ولينس ما حدث ولايعد لذلك مرة أخرى . . .

كان الـفتى يـخلو إلـى أوراقه وكـتبه . . . وكـان يرى فيـها أصدقاءه المخلصين ، يقرأ ويكتب ويقرأ . . . كان يحس بشىء من الغـربة داخل نفـسه ، لايـددها إلا تسـجيل خواطـره ، أو قراءة عميقة لكـتاب . . ولكن لماذا هذه الغربة ؟ ألأنه لم يـستقر بعد ، ولازال يتنقل من مكان إلى آخر ؟ هل هى تلك المرحلة من العمر التى يـحس فيها الشـباب بفجوة الأجـيال ، فلا يصل الكـبار إلى الصغار ولايفهمونهم ، ولايقـدر هؤلاء أولئك ؟ هل بسبب تلك الآمال العـريضة التـى تسكن قلـب الفتى الـصغير ؟ هـل لأنه لم يصادف القلب الكبير الذى يحـبه ويأنس إليه ويبدد وحشته ؟ ربما كان كل ذلك سويا !!

ورغم أن الفتى كان سريع التأقلم ، سهل التآلف ، مقبلا على الآخرين بود وقلب مفتوح ... ورغم أن الناس كانوا أيضًا يقبلون عليه ويألفونه ويحبون صحبته .. إلا أنه كان يحس بتلك الغربة إذا خلا لنفسه ... شعور غامض بالوحدة ... بوجود مسافة أو حدود نفسية تفصله عن عالمه ، عن ذاته أحيانا ... كان كما قال المتنبى :

بدوت وأهلى حاضرون وإن دارا لست من أهلها قفر

أراد مرة أن يعيش قصة حب .. كتلك التى يقرأ عنها فى الروايات ... فقرر وهو يقترب من المرحلة الأخيرة فى الجامعة بمصر أن يحب !!. وهل يقرر الإنسان أن يحب ؟ نسج لنفسه قصة حب مع إحدى زميلاته .. فتاة سمراء وديعة ، رقيقة ، لطيفة المعشر ... انسحب سريعا .. إنه لايستطيع أن يتزوج الآن .. إنه مازال طالبا .. كيف يبنى أسرة .. روعته الفكرة .. لم يرد أن يظلم الفتاة .. نسج فى خياله قصة عذاب وهجر ... فزع إلى كتبه ينهل منها ويستزيد .. يريد أن ينجح .. وهرع إلى قلمه يكتب تحت عنوان خفقات قلب :

اليوم .. يوم الذكريات .. مضى عام ، يا لها من أيام ، تمضى مسرعة ، كأنما تطارد ، والحوادث تجرى تباعا سراعا كأنها

فى سباق . والحب .. آه .. أين حبى بين هذا الخضم الزاخر ؟ إنه ضائع .. كالحقيقة .. تائه ... كذاتى ، اليوم أشرف على مكان لقائنا ، وفراقنا أيضًا . يا إلهى .. كيف تغيرت صورته ؟! إن الجدار هو الجدار .. والعشب الأخضر هو العشب الأخضر ! وأزهار البنفسج هى بعينها تملأ الحديقة ، رائعة تميل مع النسيم .. ولكن أبدا .. لكأن شيئًا خفيا ألقى على هذه الأشياء جميعا ، فأصابها بقتام .. فلا تكاد ترى أوَ يحس بها حتى يسرى الألم فى العروق ، كأنه النار ، أو كأنه مس الكهرباء ... ماذا تقول أيها القلب !! ما بال دقاتك تتلاحق كأنك تجرى وراء شيء بعيد .. ماذا ... أتبكى أيها القلب .. رفقا بك وبى ...

كان الفتى يميل إلى الحزن ... كانت مسحة من الأسى تكسو وجهه الصغير المستدير .وتظلل نظرته الحائرة ، المفكرة فى الأمور من حوله . ربما كانت المسئولية التى أحسها مبكرا ، وربما كانت الجدية التى غرسها فيه أبوه .. وربما كانت مشاعر الأهل تجاه أبنائهم إذا نجحوا أو فشلوا ... أو لعله التراث الشعبى - من أهازيج وأغان ، تزخر بالألم والأنين والبكاء ... أليس الموال ملحمة من الحزن والشكوى ؟ سهر وسهد وعذاب !! حتى أغانى الفرح يشوبها بعض الحزن ... حتى الناس عندما

يضحكون كثيرا ، تجد بعضهم يتداك الموقف ويدعو « اللهم إجعله خيرا » . وكأنهم يستكثرون الفرحة على أنفسهم ، أو لا يصدقون أنهم مسرورون ، أو أن القاعدة - وليس الاستثناء - أن يكونوا حيارى منكسرين .

بل إن هناك وظيفة متخصصة كانت تحترفها النساء قديما . . . وهى وظيفة « المعددة » أو الندابة . . . ! وهى إمرأة ترتاد المآتم ، بدعوة أو بدون دعوة ، أو يستأجرها أصحاب المأتم أحيانا . . . مهمتها أن تشعل فتيل الحزن ، وتؤجج نار اللوعة بين النساء ، فتراها تصرخ مرة ، وتولول أخرى ، تلطم ، تتلوى ، وتقول كلاما « يبكى الحجر » . . . وما أن تسمع النساء صراخها وكلامها وترى لطمها . . . حتى ينتشر العويل بينهن انتشار النار فى الهشيم .

ورغم أن النساء فى القرى وربما فى المدن أيضًا - وفى هذه المناسبات بالذات ، لايحتجن لمن يحرك دموعهن . . فهن يبكين وهن حزينات ، ويبكين وهن فرحات ، ويبكين أيضًا بين ذلك . . . فتجد نساء كثيرات عندما يذهبن للعزاء ، ما أن يسلمن على أهل البيت - أو حتى قبل ذلك بقليل - حتى تتدفق قرب من عيونهن ، وتجرى سيول على ألسنتهن . . . ولكن المعددة أو

الندابة كانت تنشط كل ذلك ، وتوجهه ، وتحكم إيقاعه . . . فقد كان مجرد ظـهور هذه المرأة يعد النساء للحزن ، ويهيؤهن نـفسيا ووجدانيا للعمـل تحت قيادتها ، وكأنها تمسك عصـا سحرية تمر بها على عيـونهن فتنهمر مـنها الدموع ، وعلى قـلوبهن فتتفجـر منها الأوجـاع . . . فإذا أخـذت الـندابة مقـعدها بيـنهن ، أجهـشن بالبكاء ، وعلا نحيبهن ، ودعين مـعها بدعوى الجاهلية . . . إنها مـايسـترو المـأتم . . عـازفـة الآلام . . مـوسيـقـار الأسـى والأحـزان . . .

كان منظر هـذه المرأة يثير فى نفس الـصبى الصغير شيـئًا كثيراً من الخـوف ، وشيئًا كثـيراً من الـكره . . وشيـئًا كثيراً أيـضًا من الاستنـكار ، لها وللـمهمة التـى تؤديها . . . معـددة . . . وتعدد المرأة بلغة القريـة أى تتحسر على حالها بعد وفـاة عزيز لديها . . . وربما جاءت الكلمة من أنها تعـدد مآثر الشخص المتوفى ، أو تعدد جوانب خيبة الأمل التى تصيبها من فقدانه . . . أو تعدد الجوانب السلبية فى حياتها وفى حياة القرية التى لم تتغير حالها منذ سنين . فهى تندب حظها وحظ من معها وكل شىء حولها .

تمضـى الأيام بالـفتى ، غيـر مستقـر ، يذهب إلى الـقاهرة يدرس ، ويعود إلى الـصعيد يستريح ، يقرأ ، ويـلعب ، ويمضى

بين الحقول الخضراء ، شىء غامض جميل يشده إلى هذه الحقول ، إنها الخضرة الساحرة ، والهدوء الشامل ، والصمت البليغ ، والصبر الذى يميز هؤلاء الفلاحين البسطاء . الذين تكسو وجوههم سمرة رائعة ، وعرق صادق يعكس المجهود الخارق الذى يقومون به ، بأدوات بدائية بسيطة . . وحيوانات طائعة ذلولة . . . الجاموس والبقر والجمال والحمير .

كان الفتى ينظر إلى الجمل بشىء من الإعجاب ، والخوف أيضًا . . . كان يثيره رابضا فى الحقل . . ويثيره حين يمشى أو يجرى حاملا صاحبه وحاجياته . . وكان يثيره أيضًا حين يجتر طعامه . . . إن أسرارا كثيرة تكمن فى بطن هذا الجمل ، ونفسه ، وعينيه . . إنظر إلى عينيه ! إنه ينظر ، يرى ، يحس ، يكاد يتكلم . . . كان الفتى أحيانا يرتعد خوفا منه . . . وكان يرى شرطة الهجانة تركب الإبل ، فيخاف من كل من الجمل والجمال ، كلاهما صامد ، صابر ، جامد ، غامض ، وكأنه خزانة مغلقة لا يستطيع الفتى أن يفتحها أو حتى يجرؤ على الإقتراب منها . . .

تذكر الفتى قطعان الإبل الكثيرة التى رآها فى الصعيد وإقترب منها وخاف من بأسها ، وربما أحبها أيضًا ، عندما زار حديقة

الحيوانات الكبيرة بمدينة نيويورك . وكانت معه إحدى زميلاته وكان بين الحيوانات الكثيرة جمل كبير . . نظرت إليه الفتاة الأمريكية بإعجاب . . قال لها الفتى إنه رأى كثيرا من البعير فى صعيد مصر ، وإن أخواله يمتلكون عددا منها يشغلونها فى الحقول . . دهشت الفتاة كثيراً . . . كانت تظن أنه حيوان نادر منقرض ، لايرى فقط إلا فى حدائق الحيوان .



لم يخفق قلب الفتى إذن . . ولم يعثر على الفتاة التى يمكن أن تكون شريكة حياته . . أو أنه لم يبحث عنها . وهل حقيقة يبحث الإنسان عن حبه ؟! هل يحب بإرادته ؟! أم أن الحب شيء يأتيك فجأة . . يأخذك . . يملأ عليك وجدانك !!

لقد قابل الفتى فى حياته قبل البعثة كثيراً من الناس . . . جذب انتباهه كثير من النساء . . ولكن يبدو أنه أغلق قلبه أو فكره !! أو لعل إنشغاله ببناء مستقبله منعه من التفكير فى الزواج . وهل يمنع الزواج الإنسان من التفكير فى مستقبله ؟

إنه مازال شابا على أية حال . . . وإنه يتذكر نصائح أساتذته والرجال الذين يكبرونه فى العمر والخبرة أيضًا ، بشأن الزواج

قبل أن يسافر إلى أمريكا . لقد إنقسم هؤلاء إلى فريقين . أحدهما ينصحه بالزواج فوراً ، وقبل أن يسافر . وحجتهم فى ذلك العصمة والعفة . . وأن يتقاسم الطرفان - الفتى وزوجه - خبرة واحدة ويكتسبا تقدما ونموا واحدا . ويعينا بعضهما على الغربة ويبنيا سويا مستقبلهما المشترك .

أما الفريق الآخر فدعواه أن الطالب المبتعث سيكون مشغولا بالعلم والتحصيل ، ويجب أن يتفرغ لذلك . . . وأن مشكلات الزواج والأطفال فيما بعد ستعطله عن مسيرته . لذلك يجب أن يسافر وحده - يدرس ويتعلم وينضج ويعترك الحياة . . . ثم يفكر بعد ذلك فى الزواج .

وربما كان هناك حل ثالث . . . وهو أن يسافر الطالب وحده لفترة قصيرة . . حتى إذا إستقر واطمئن وألف الوضع الجديد ، يمكن أن تلحقه زوجه . . . فهو يقضى المرحلة الأولى وحيدا متفرغا لمواجهة الحياة الجديدة ، ثم يتيح الفرصة لشريكة حياته أن تقتسم معه جزءا من خبراته وتعاونه فيما تبقى من مسيرته .

أنصت الفتى إلى هذه الآراء جميعا . . ولكن مرت به الأيام سريعة . . . حتى وجد نفسه يستعد للرحيل . . . وها هو يعيش فى مجتمعه الجديد ، الذى أحبه واندمج فيه ، وأقبل على

المشاركة فى الأنـشطة العلمية الـتى أحبها ، واكتشف مـن خلالها أساتذة وكتابا ومؤلفين تأثر ببعضهم وأعجب بهم .

بل إنـه إلى جانب ذلـك إكتشـف نفسـه ، تآلف معـها . . . تبـددت تدريـجا تلـك الغـربة الـداخليـة . . . ماذا حـدث ؟ إنه الاستقرار والاطمئنـان النسبى للمستقبل ، والنـجاح والتقدم على الطـريق والثقـة بالنفس . . تجعـل الإنسـان يقـف على أرض صلبة . . وينطلق من منطلق قوى .

ماذا عن القلب الآن ؟ يتذكر أنـه فى الأيام الأولى من البعثة دعى فى مدينة مجاورة إلى حفل (بارتى) وهى مناسبة إجتماعية يتقابل فيها الناس ، يسمرون ويـرقصون ويأكلون . . إلتقى الفتى فى هذا الحفل مع فـتاة أمريكية . أنس لها وأنسـت إليه . . تحدثا كثيرا . . وافترقا بعد أن تبادلا العناوين . . ووصله منها كتاب بعد أسبوع واحد . . كان كتابا رقيقا تشرح فـيه الفتاة فرحتها بلقائه ، وسعادتها بالحديـث معه . ووقعت الخطاب باسمها مسـبوقا بلفظة الحب . . وهذه إحـدى عادات الأمريكـان حين يكتـب الأصدقاء لبعضهم ، يـصحبون توقيعهم بكـلمة الحب ، أو كل الحب . . . تأكيدا لأواصر الصداقة ، أو تعبيرا عن حب حقيقى ، أو لإضفاء لمسة جمال على ما يكتبون ، أو مـحاولة لإسعاد من يراسلونهم ،

أو لعلهــم يتمنون أن يكون هــناك حب ، أو لأنهم يفتــقدونه فى الواقع فلا أقل من أن يثبتوه على الورق . . . .

على أيــة حال . . كـان هذا الـكتاب مصــدرا عميقا لـسعادة الفــتى . . . قرأه مرات ، ووضــعه فى غلافــه بعنايــة . . . وكان يفضــــه بين الحين والآخر يقـرأه ثانيـة . . ويــقف عنــد كـلمات بعيــنها . . هل سعــدت الفتاة به حقــا . . . كانت حاله هــذه مثل أغنية لــيلى مراد القديمة : جواب حــبيبى قريته واللــى أقراه أعيده وأزيده . . . .

وكتب الفتى يرد على فتاته . . . وأودع فى كتابه أشواقا كثيرة وتعبــيرا بليــغا عن سعــادته . قص علــيها كيــف وجد كتابــها فى صندوق البــريد ، وفرح به ، وأخــذه بيــد حــانية ، وضــــمه إليه برفق . . . وصــعد إلى غرفــته وقرأه بشــوق وأعاد قراءته . لــقد وصف لها بدقه ما كان يجيش فى صدره من أحاسيس . . . وكأن الكتاب كان إشارة مرور خضراء لعواطفة أن تنطلق .

ولم يــصله رد من الــفتاة . . . وانــشغل هــو بأمور كثــيرة ، وسرعــان ما نــسى هـــذه الفــتاة . . وربما ضــحك من ســذاجة عواطفة . . هــل خفق قلبه فعــلا ؟ بالطبع لا . . ولكــنه الشوق للحب ! التطلع لتجربة هــذا الشىء الرائع ، الذى كتب مرة يصفه

فى يومـياته حين كان طـالبا بالجامـعة بمصر - دون أن يقـع فيه - بالملاك الرقيق الذى ينشر أجنحته على القلوب فيمسها مسا رفيقا ، يرهف إحساساتها ويرق شعورها .



ومرة قابل فتاة ، عرفه الأصدقاء بـها . كانت تعيش فى نفس الولاية ، ولكن فى بـلدة أخرى بعيدة وتأتى إلى البـلد الذى يقيم فيه الفتى فى زيارات متقطعة . تآلفا سريعا . كانت تحب مصر حبا جما ، وتحلم بالـسفر إليها . . . كانت مولعة بتـاريخ مصر القديم الذى درسـته وهى طفـلة صغيـرة . أعجبهـا الفتى . . ارتـاحت لبساطـته وسعدت بصداقتـه . وكان يحب لوحة لرسـام مشهور ، وكانت هى أيضًا تحـب هذه اللوحة . عبرت عن هـذا التوافق فى الذوق بأنه فأل طيب .

هل يمكن أن تكون هذه الفتاة هى زوجة المستقبل ؟ ولم لا ؟ انها جمـيلة ، مبتسـمة سعيدة ، مرحـة ، تشيع حولهـا جوا من السعادة والمـرح . . . ما الذى يمنعه ؟ الخوف ؟ . . لاتـزال الطريق أمامه طويلة . . ولكن ، لماذا يـرسخ فى ذهنه أن من الصعب أو المستحيل الجمع بين الدراسة والزواج !!

إفترق الإثنان . . حزنت الفتاة ، وكذلك الفتى . . أحس أن

شيئًا سلب منه . ولكن كانت لديه القدرة والإستعداد الذهنى والنفسى أن يبتلع أحزانه . فوجه إهتمامه مرة أخرى لكتبه وإمتحاناته . . إنه يريد أن يفوز فى سباق الدراسة ، ولايهمه بعد ذلك نجحت عواطفه أم فشلت .



ومرة قابل فتاة أخرى . . كانت تعمل مدرسة فى المرحلة الإبتدائية فى إحدى المناطق المجاورة . . . تعرف عليها فى إحدى المناسبات . أعجبها وأعجبته . . كانت جميلة الوجه هادئة الطبع . . أنيقة ، بسيطة ، غير متكلفة فى حديثها أو ملبسها . كان حبها للفتى ينمو يوما بعد يوم ، أرسلت له مرة بطاقة فى أحد الأعياد . وفوجئ الفتى أن تلاميذها ، الأطفال الصغار ، بنات وأولادا ، كتبوا معها هذه البطاقة . . زينوها بخطوط جميلة ، رشقوا فيها رسوما بسيطة ، عبروا عن سعادتهم بكلمات عذبة بريئة تعكس ما فى نفوس الأطفال من تلقائية وعفوية وحب . . . أحب الفتى كثيراً هذه البطاقة وإحتفظ بها ورأى فيها نموذجا للحب والود والروابط التى يمكن أن تجمع الناس فى كل مكان بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم ومواطنهم .

كان الفتى يشعر بسكينه إذا قابل هذه الفتاة . . وكانت هى

أيضًا تشعر بسكينة وإطمئنان كبير .. وكانت تعبر له عن ذلك .. كما كانت تعبر عن قلقها وخوفها من أن تفقده . كانت تعلم أنه يعيش فى أمريكا مؤقتا .. وأنه سيعود إلى وطنه عاجلا أو آجلا . ومن ثم لم تحاول أن تفرض صداقتها عليه .. كانت رقيقة المشاعر مرهفة الحس .. حمل لها الفتى كل ود وإعجاب وتقدير .

ومرة كان الفتى على سفر .. كان ينتظر الباص فى محطة النقل الرئيسية ... وهناك قابل فتاة ، شقراء ، ذات جاذبية هادئة ولكنها تستولى عليك من أول نظرة ... تعرف بها .. كانت مسافرة إلى بلد آخر غير التى يقصدها الفتى ... كانت تعيش فى ولاية بعيدة ... دعاها إلى فنجان من القهوة .. تكلما فى أشياء كثيرة .. أحس كأنه يعرفها منذ زمان طويل . لم يتوقف الإثنان عن الكلام ، وكأنهما يريدان أن يقولا لبعضهما كل شىء خلال هذه الساعة التى ينتظران فيها الباص .

إنشغلا عن كل ما يجرى حولهما ...

وكأن هذه المحطة التى تموج بالناس .. يجرون هنا وهناك .. يلحقون بسياراتهم ، ويشترون تذاكرهم ، ويأكلون وجبة سريعة يتصبرون بها على ألم السفر ، أو يتناولون مشروبا يروى

ظمأهم . . . هؤلاء أولاد يستقبلون أباهم . . . وهذه زوجة تنتظر زوجها العـائد من سفر طويل . . وهـذه أم تلملم أطفالـها الذين يلعبون ويحاولون الإفلات من رقابتها . . .

كأن هذه المحطة التى يجرى فـيها كل ذلك . . . قد خلت إلا من الفتى والفتاة يجمع بينهما ود سريع تكون فى لحظات . . . أو كأن الجمـيع توقف ، وصمـت ، ليتيح للـشابين أن يتكـلما ، أو ليسمع همسهما . . .

ولكن لمـاذا يمضى الوقت هـكذا سريعـا ؟ ما لعقارب الـساعة تجرى ، كأنها تريد أن تسلبه حلمه ، تلدغ أحاسيسه ؟! لماذا يحس الإنسان أن الـوقت الجميل يمـر بسرعة البـرق ؟ إنها السعـادة التى ترفرف عليه . . والخوف أيضًا من فقدانها . . . إنه يريد أن يعيش كل لحظة فـيها ، يتمنى لـو توقفت الساعـة عن الدوران !! ولماذا يحس الإنسان من جهة أخرى بالوقت التعيس يزحف بطيئًا ثقيلاً ؟ هل هناك وقتان ! ساعتان ! نوعان من الدقائق والثوانى ! أحدهما يسـعى خفيـفا والآخر لايكـاد يقوى علـى الحركة !! إنه ادراكـنا للوقـت هو الذى يعـطيه هذه المـعانى المختـلفة . . ادراكنـا الذى يعكس شعورنا ويتلون بأحوالنا النفسية والعاطفية .

لم يدر الإثنان إلا وموعد الرحيـل قد حان . . ولـم ينتبها إلا

على إعلان قيام سيارتيهما . ودع الفتى فتاته . . شدت على يده . . تبادلا الأمانى الحلوة . . ركب كل منهما فى سيارة . . كان طريقاهما مختلفين . . لوحا لبعضهما . . . أدار السائقان محركيهما الضخمين ، فأصدرا هديرا مخيفا ، كأنه إعلان بالفراق . ولم يدر هذان السائقان أبدًا عندما توجها فى طريقين مختلفتين أنهما قد فرقا بين اثنين . . قلبين . . كان يمكن أن يكون بينهما شأن كبير . . . كتب هذه القصة بعد أن عاد إلى البلدة التى يقيم فيها ، ونشرها فى المجلة الأسبوعية للجامعة . . لقد اعتاد أن يعبر عن عواطفه بالعربية ، ولكنه اليوم يكتبها بالإنجليزية . . . قالت له إحدى زميلاته مداعبة بعد أن قرأت مقاله : هذه عواطف رومانسية ، نفتقدها نحن الأمريكان .



صادف الفتى أثناء دراسته عددًا كبيراً من الفتيات . انجذب إلى بعضهن ، استهواه جمال البعض الآخر ، وأعجب بشخصيات فريق ثالث ، وإستولت على فكره ثقافة فريق رابع . . . ولكنه لم يكن ممهدا نفسيا للإرتباط بشريكة عمره .

مرة كان يقرأ مجلة الريدرز ديجست ، ومرت عيناه على أحد الإختبارات التى ينشرونها للناس ، يساعدونهم بها على اكتشاف

جوانب من حياتهم الشخصية والإجتماعية . وكان هذا الإختبار : اعرف اسم زوجك المستقبلة !! فرح الفتى لذلك كثيراً . . أعد لنفسه قدحا من الشاى . وجلس يجيب عن أسئلة الإختبار ، واحدا بعد الآخر ، بتركيز وعناية شديدين ، يسجل أرقامه ، ويطرح ويجمع ، ويضع الحروف إلى جانب بعضها - تماماً كما تقول إرشادات الإختبار . ماذا وجد فى النهاية ؟ وجد اسمه هو مسبوقا بكلمة « مسز » أى زوجة فلان !! إغتاظ الفتى قليلاً . . وضحك أيضًا . . ثم اكتشف فى نهاية الإختبار أنه واحد من تلك الإختبارات الفكاهية ، الخادعة كما يسمونها ، لأغراض التسلية والترفيه !!

ويوما وجد عند عودته إلى منزله . مغلفا كبيراً فى صندوق البريد ، عليه طوابع بريد استرالية . ممن هذا يا ترى ؟ إنه لايعرف أحدا فى إستراليا . ! ولكنه مرسل إليه بالتأكيد ، فهذا اسمه واضح على المظروف . . . أخذ الفتى المظروف ، وفضه ، فوجد فيه كتابا ودليلا وخريطة وصورة .

أما الكتاب فكان نبذة مختصرة عن تاريخ إستراليا ، وما هى عليه الآن من تقدم حضارى ، وأنها تسير على الدرب محققة تقدما أكبر ، وصناعة أقوى ، وحضارة حديثة ، وكيف أنها

أصبحت أرض الفرص ، كما كـانت أمريكا الأولى - وما زالت - بلد الفرص أيضًا .

وفى الكتاب دعوة مـرحبة مفتوحة دافئة أن يهـاجر الفتى إلى إستـراليا ، إنهـم يبحثـون عن الكفـاءات . يقرأون الأسمـاء فى الجامعات العالمية ، ليستدلوا عـلى أولئك الذين يدرسون للدكتوراه أو الماجستير ، وشتى الشهادات العلمية فى مختلف التخصصات ، والمواعيد المتوقعـة لإنتهائهم من دراستهم ، ويدعونـهم لبلدهم - بوتقة كبيرة تنصهر فيها القدرات المـتنوعة تشارك فى بنائها ونهضتها وتطويرها .

أما الدليل والخريطة ، فيريدون أن يـعرفوك من خلالهما بهذه القارة الشـاسعة الواسعة ، البـكر الخضراء ، الجميـلة . . . التى تنتظر من يعمرها ويرقى بها .

وأما الـصورة فكانـت لفتيـات أستراليـات - خمس منـهن ، جميلات ، وفى الـكتاب إشارة تقول : وقد يطيـب لك المقام فى استراليـا ، فتقرر أن تستـقر فيها وتتـزوج وتبنى أسرة المسـتقبل . وهذه صورة للفتيات التى يمكن أن ترتبط بإحداهن .

أثلج الكتاب صدر الفتى ، واحـتفظ به طويلا . أجمل شىء أن يجـد الإنسان فـى الآخـرين رغبة إلـيه ، وإقبالا عـلى

صحبتـه . . . إن ذلك يشعره بقيـمته . . . يمده بالأمان . . يـعينه على المضى قدما فى طريقه ليحـقق أهدافه ويحتفظ بمزيد من رضا الناس واحترامهم وتقديرهم .

غير أن الفتـى كان ينوى فى قرارة نفسه أن يـعود إلى بلده . أما لو كان اختيـاره غير ذلك ، فأغلب الظن أنه كان سـيستقر فى أمريكا ، وليس بلدا آخر .

ولماذا يرتبط الآن ؟ إنه ليس على استعداد أن يكون أسرة . . يريد أن يـنهى دراسته أولاً . . انـه لازال شابا . . لماذا العـجلة ؟ ولكـــن . . . هل اسـتطـاع الفتـى أن يغلـق قلـبه ؟ أن يؤجـل عواطفه ؟ هب أنه قابل فتاة أحلامه - كما يقولون ؟ هل سيطلب منها الإنتظار ؟ هل يدعوها أن ترجئ هى الأخرى عواطفها ؟

لقـد تعرف مرة عـلى فتـاة . . . كانت مـتوسطة الجـمال . . وديعة ، تحب الحيـاة ، شديدة التفاؤل ، بسيـطة ، صريحة . . . كانت فـى السنة الأخيـرة من دراستها الجامـعية . . فرحت كـثيرا بحصولهـا على البكالوريوس . . حـصلت على وظيفة فـى مدينة مجاوره بنفس الولاية . . كانت تطـمئن على الفتى ، تحب سماع أخباره . كانـت تود لو تزوجته . . . لمحت لـه مرة . . وصرحت له أخرى . . عز على الفتى أن يصـدمها . . . أخبرها أنه يريد أن

ينتهى من دراسته أولا !! وهل هناك ما يمنع من الدراسة والزواج ! ربما لا . . ولكنها مرحلة يريد أن ينتهى منها . ثم إنه سيعود إلى وطنه بعد ذلك ويستقر فيه . هل يمكنها العيش فى بلد أجنبى ؟ نعم . . أجابت مسرعة ! ولكن الحياة هناك تختلف عنها هنا فى أمريكا . . شرح لها . ولكنى أحب تاريخكم المجيد وآثاركم الخالدة . . . هذا ليس كل ما فى الأمر ! ماذا بعد أن تذهب الفرحة بالآثار ، ويخبو الإعجاب بما صنع الأجداد ؟ سأحصل على وظيفة هناك . . . سأعلم الإنجليزية للمصريين . . . هذا عمل نبيل ! ولكن هل يمكن لإثنين من ثقافتين مختلفتين أن يعيشا معا ، زوجين ، لفترة طويلة لايعلم مداها إلا الله ؟

وهل يمكن للمرأة أن تتكيف مع البيئة الجديدة كما يتكيف الرجل للبيئة الأمريكية ؟ ربما كان الأخير أكثر وأسرع تكيفا . . لعدة أسباب . . إن الحياة هنا رخية ، صحيح أنها ليست سعادة كلها ، ولكن مجالات الرفاهية فيها أكبر . وإن الشخص الذى يسافر إلى أمريكا غالبا ما يذهب لمهمة معينة يريد أن ينجزها فى وقت محدد ، وهو فى الغالب يجد بغيته ويعثر على ضالته - فى العلم والعمل والترفيه ، والحب أيضًا . . . انه مجتمع كبير مفتوح . . بوتقة كبيرة تذوب فيها الأجناس وتتآلف فيها الثقافات وتتعايش فيها المتناقضات . ومع كل ذلك ، فهناك من لايندمجون

أو يتكيفون . . منهم من يستمر ، ومنهم من ينسحب . . ومنهم من يعيش على الهامش ، أو يقتصر فقط على المهمة التى جاء من أجلها . . إن الناس يختلفون فى درجات تكيفهم وتوافقهم .

ألمت الفتاة للفراق . . . دعت للفتى بالتوفيق ، وبادلها الفتى أيضًا أمنياته . . . كانت تعتقد صادقة أنها عثرت على الفتى الذى يلائمها . . حتى هو ، كان يداخله إحساس بأن هذه الفتاة تلائمه . . . ولكن : ما كل ما يتمنى المرء يدركه . . تأتى الرياح بما لايشتهى السفن .



وقابل الفتى فتاة مرة أخرى . . . جذبته إبتسامتها الرقيقة ، وحديثها الحلو ، وثقافتها المتنوعة ، وفكرها العميق . كانت فتاة راقية متحضرة . . تلمس ذلك فى ملبسها وحديثها والموضوعات التى تتناولها . كان وجهها كالبدر ، يشع ضياء ، تزينه عينان سوداوان عميقتان . . . حين تنظر إليهما تجد فى نفسك فرحة وسرورا ، كانت كما قال الشاعر : يزيدك وجهه حسنا كلما زدته نظرًا .

أنس الفتى لصحبتها كثيرًا ، وفرحت هى بلقائه فرحا

عــارما . . . كانـا يتقـابلان فى الجامـعة ، والمنـاسبات والأعـياد والحفلات . . . يقابلان كثيرا من الأصدقاء . . .

كانت إجتماعية ودودة مرحة ، تحب الحياة والناس .

كانا يتحدثان فى موضوعات شتى . . . أحبت مصر من خلال الفـتى . . . سـألته عــن أشيـاء كثيـرة - طفـولـته ، حيـاته ، دراسته . . . كـان يحكى لها عـن الريف المصرى ، طفـولته فى الصعيد ، دراسته فى القاهـرة . . . والفتاة تسمع . . . وتحكى له عن نشأتها وأحوالها وأحلامها . . . لم يكن الحديث ينقطع بينهما أبدا . . . كـان هناك دائـمًا شيء يقولانـه لبعـضهمـا . . إن لدى الفتى كلامـا كثيرا يريد أن يقوله . . . ولديـها كذلك . . . ووجد كلاهما الفرصة ، وتبادلاها . . توثقت صداقتهما . . .

هل يمكن أن يدخل الحب بينهما ؟ لا يا قلب . . اتئد قليلا ، إمش الهوينا فى طريق العـواطف ، وهرول فى طريق العلم . . . فهـى لاتزال طـويلـة !! المهـمة لاتزال جـسيـمة . . وكـثيـر من الإمتحانات والتحديات يقبل حثيثا . . . الفتاة تشجعه . . تحيى فيه إخلاصه . . تـتبع أخباره . . تتابـع تقدمه . . تفرح لـنجاحه . . الفتــى ممتن جداً . . يشكـرها ، يقدرهـا ، يحترمهـا . . . ولكن يحبها ؟ لـم يخفق القلب بعــد !! هل استطاع أن يسيطـر عليه -

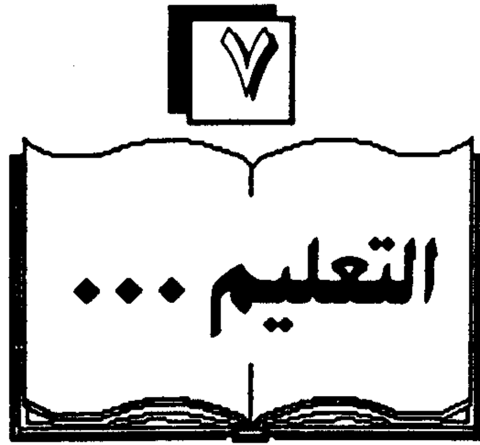
يحكـم حركته إلى هـذا الحد ؟ ترى هل سـيقدر لهذا الـقلب أن يخفـق بالحب مرة ؟ وهل سـيستجـيب إذا أمره صاحبـه بذلك ؟ لايدرى ..



كان الفتى صادقا مع نفسـه ... وكان تفكيره الخصب يحول قصصه الواقعية إلى خيال كبير .. غامض .. ساحر .. ممتع .. مؤلـم .. كـان يحـب أن يهوم فى عالم آخر ... يوتوبيا ؟ لا .. وإنما كان يحس براحـة كبيرة عندما يمسك بالـقلم ، ويسطر على الـورق خواطره .. وكأنه يـودع أسراره ووجدانه فـى مكان أمين . كان وهـو فى المرحلـة الجامعية بـالقاهرة يـكتم كثـيرا من أحاسيسه .. لايـقولها لأحد، وإنما يبوح بهـا للورق ... أو يسر بها للنيل ، الخصيب الحبـيب ، الساحر العميق ... زفرات حارة كانـت تحرقه وهـو يعبـر عنها . كـان الكـاتب والأديب ينـمو بداخله .. مبكرا .. وهـو صبى لما يتجـاوز الخامـسة عشـرة بعد ... إستمـر يكتب ، ويكتب ... حتـى الشعر ، حاول أن يقرضه مرة ولكنه توقف سريعا .. كان أول ما كتب من الشعر :

أريد أن أبلغ الكمال بشعرى .. ومـا أنا ببالغ إياه .. فإن الكمال كله .. لله جل فى علاه .

عجيب أمر هـذا الفتى . . . كيف لم يخفق قـلبه بالحب . . وهـو إنـسان مرهف الحس رقـيق الشعور ، ومـعظم كتابـاته عن الحب . . كانت له لمسات عميقة . . كـلمات حية ، ربما تعكس ما يختـلج فى صدره من أحاسـيس عارمة ومشـاعر فياضة مفـتوحة للحب . يبدو أنه آثر الإنتظار . . وإن غدا لناظره قريب .



﴿ وقل رب زدنى علما ﴾
سورة طه ١١٤

☆ ☆ ☆

كن عالما أو متعلما أو سامعا

ولا تكـــن الرابــع فتهلك

أنفق الفتى سنوات بعثته إذن فى التعليم ، أراد أن ينهل من العلم ما إستطاع .. ذاب فى الحياة الجامعية ، المثيرة ، الخصبة ، المتجددة ، المليئة بالتجارب ... درس مواد متعددة فى أقسام وكليات متنوعة . فالطالب يتخصص فى مجال معين ، يعتبر الميدان الرئيسى الذى يجول فيه . وإلى جانب ذلك له تخصص فرعى أو مساعد أو مكمل . وهو يدرس فى الحقلين مواد كثيرة - بعضها ملزم إجبارى ، والآخر اختيارى يقرره هو وأستاذه المشرف عليه ، أو كما يسمونه الموجه أو الناصح . ثم إنه بالإضافة إلى هذا يدرس أيضًا مواد مختلفة فى مجالات تخصص أخرى - ليست بعيدة عن الفرعين اللذين يتخصص فيهما - وإنما تساعده على صقل شخصيته العلمية ، وإثراء فكره ، وتنويع إهتماماته ، وتوسيع أفقه . فترى الطالب يأخذ باقة فريدة من العلوم ، وكأنه فراشة تحلق بين الزهور تمتص رحيقها فتتكامل أجزاء غذائها .

وقد أحب الفتى معظم المواد التى درسها ، ورغب فى الإستفادة منها . فلا يكفى أن تكون قادرًا - ذهنيا وبدنيا - على التحصيل ، ولكن يجب أيضًا أن تكون راغبا فيه ، مدفوعا إليه ، حريصا عليه ... وكانت هناك مواد لم تعجب الفتى ولم تثر

إنتباهــه كثيراً . . . وهـذا أمـر طبيعـى ، فـليس كل العلـم سهلا سائغا . . . بل ربما كان العكس هو الـصحيح . إن للعلم مشقة ، تتطلب عقلا جادا وروحا وثابة إلـيه . حتى إذا لم يكن بك رغبة إليه . . يجب أن تـروض نفسك على ذلك . ألم يـقل الشاعر : لاتحسـبن المجد تمرا أنـت آكله ؟! إذن يجـب أن تستـعد لمواجـهة مايعتريك من صعاب ، آلام ، سهر ، وربما دموع أيضًا . . . فلن تبلغ المجد حتى تلعق المرا . . . بلّ إن هذه الصعاب تصبح بالنسبة للـشخص النـاضـج الجـاد نوعا مـن التحدى يـجب أن يواجـهه بشجاعة . . . إمتحانا يجـب أن يجتازه بنجاح . . . نزالا يجب أن يخوضه بمهارة حتى يفوز . . . ألم يقل شاعر آخر :

إن أنت لم تشرب مرارا على القذى فمتـــى وأى الناس تصفــو مشاربـه

إن العــلم كـالحيـاة . . . جزء منــها . . . لاتـصفـو دائمًا ، ولاتتكـدر على طول الخـط . . ليست نـعيما مـقيما ، ولا شـقاء مستمـرا . . . وإنما هـى خليـط مــن هذا وذاك . فيـوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر . . .

لذلك كان مهما أن يثبت الشخص وجوده ، وأن يؤدى الدور الذى يعيش من أجله ، بجد ومهـارة ، وأن يتسلح لذلك بالتوكل علـى الله وصــدق النيـة والعـزم على الـفوز ، وبذل المجـهود

الصادق ، المخلص المستمر للنجاح . . فخير الأعمال ما ديم عليه - كما يوصينا رسول الله ﷺ . لقد عود الفتى نفسه على الدراسة والتحصيل - كما علمه أبوه - منذ أن كان صبيا صغيرا ، وعقد العزم على أن يستمر فى ذلك حتى يحصل على شهادته ، وبعد ذلك أيضًا .

يذكر الفتى أنه دعى مرة إلى حفل (بارتى) ، وكان بين الحاضرين أستاذ كبير كان الفتى يحب محاضراته . كان حلو الحديث ، هادئ الحركة ، عميق الفكر ، متواضعا . وبعد أن مكث فى الحفل قليلاً أراد أن يغادر . فسأله الحاضرون أن يبقى ، فلازال الوقت مبكرا . ولكنه أجاب بأدب أن لديه محاضرة فى الصباح ، ويريد أن يستعد لها ، ويذهب للبيت ليقرأ . هذا الأستاذ الكبير يستعد ! يقرأ ! نعم . . . كلما ازداد الإنسان علما ازداد تشبثا به ، وحرصا عليه ، وشوقا إليه ، وإقبالا على تحصيله . ألا يقولون فى الأثر : منهومان لايشبعان : طالب علم وطالب مال ؟ فليحرص الفتى إذن على العلم كما يحرص عليه أساتذته . . . سيقول الفتى ذلك فى المستقبل لتلاميذه ، والطلاب الذين يشرف على رسائلهم العلمية . . . سينصحهم بأن الدكتوراه نهاية مرحلة ولكنها بداية أخرى ، يصبح الشخص بعدها مؤهلا لأن يقرأ بوعى ، ويبحث بفكر ناضج مستنير . . .

وهذا أستـاذه المشرف على رسالـته ، قال له الفتـى مرة وهو يحاوره فى جزء من أجزاء الرسالة ، مشيرا إلى أحد المراجع : إن هذا الكـتاب صعب !! قـالها وهو يـشعر بخـجل ، كيف يـكون الكتـاب صعبا وهـو على أعتـاب الدكتواره ؟ وفـوجئ الفتـى برد أستاذه : وأنـا أيضًا أجده صعبـا ! إذن هناك السهـل والشاق . . والإصابة والخـطأ . . كما أن هـناك من المؤلـفين من نجده سـهل التعبير متمكنا من ناصية لغته ، وآخرون لايتقنون لغتهم .

يذكـر الفتـى أحد المؤلـفين الذين لابـد من قراءة كـتبهـم فى مرحـلة الدراسـة العـليا . كان الـكتاب رفـيع الـقيمـة ، راقى المحتوى ، عـميق الفـكر ، بليغ المـعنى . . ولكـن وا أسفاه . . كانت لغـته صعبة ، معقدة ، تـشعر كأنها كانت عـسيرة الولادة . لاتكاد تمسك بأول الجملة أو الفقـرة ، حتى تفلت منك ولاتعرف نهايتـها . . . كأنها ضاعت منـك ، أو ضعت منها ، أو ضيـعكما الكـاتب معـا . . تحس وأنـت تقرأ الـكتـاب كأن اللـغة لاتطـيع صاحبها . . تتمرد عليه .

بيـنما يـذكـر الفـتى كاتـبا آخـر ، عالمـا نفسيـا واقتصـاديا واجتماعيا ، حـين تقرأ أحد كتبه ، فإنك لاتحب أن تـترك الكتاب قبل أن تتمه . إنه يستحوذ على إنتباهك ، يخلب لبك ، يخاطب

ليس فقط أفكارك وذكاءك ، بل إنه يداعب مشاعرك ووجدانك . كان المؤلفون على درجات بين هذين الكاتبين . البعض تقرأه وأنت مضطر ، متألم ، تمر على الصفحات وكأنك تتجرع سما ، وتقرأ الكلمات وكأنك تقذف بالحجارة . والبعض الآخر تقرأه وأنت سعيد ، تهيؤ نفسك له ، تستقبله بترحات وشوق . بل إنك تقع فى حيرة من أمرك ، فأنت تريد أن تلتهم الكتاب بسرعة لما فيه من تشويق ومتعة ، ولكنك فى نفس الوقت تريد أن تقرأه على مهل حتى تستمع بكل ما فيه من كلمات ومعان .

إن التعبير السليم - دقة ومعنى وجمالا ، ونقل ما يدور فى ذهن الكاتب إلى فكر القارئ . . . مهارة رفيعة لايتقنها الجميع . إنها تتطلب انتباها ومراسا ، وأهم من ذلك أذنا صاغية ، وقلبا مفتوحا ، وحسا مرهفا ، للغة وأسرارها ومواطن جمالها . . . إن من البيان لسحرا - كما قال أحمد شوقى . . . وكان أبو الفتى يخبره بأن للغة جرسا وإيقاعا يصل ما بين الآذان والعقول والقلوب أيضًا . . . كما يتطلب الأمر من الكاتب رغبة صادقة فى نقل رسالته للقارئ . . وكأنه يكلمه شخصيا . . . يناجيه . . . يصحبه فى رحلة فكرية ممتعة .

يذكر الفتى مدرسين كثيرين - فى مراحل التعليم المختلفة -

كان لهـم إلى جانب أبـيه - بعد فـضل الله - أثر كبـير فى تنـمية إهتـمامه بالمـواد التى يـدرسها . وذلك لحـسن تعـبيرهم وجـمال إلقائـهم ، وطريقة الـتعليم الـتى إتبعـوها . كما يذكـر آخرين - لايغمط حقـهم ولايقلل من شأنهـم - ولكن كان للغتهـم الصعبة وطريقتهم الخـاطئة فى التدريس ، أثر كبير أيـضًا فى إنصرافه عن مـواد مـعينة . لذلـك كان مهما أن يـختار المدرسون عـلى أساس دقيـق ، وأن يعدوا لذلـك إعدادا سليـما ، وأن يهـيؤا للتـدريس ذهنيا ونفسيا ، وأن يدربوا على الطرق الناجحة للتعليم . ويصبح الأمر فى غاية الأهمية عندما نتكلم عن المراحل التعليمية الأولى ، لما لهـا مـن شأن عظيـم وأثر كبير علـى تقدم الطفل فـى المراحل التالية ، وعلى كثير من شئون حياته ومعاملاته .

دعت الـفتى مـرة إحدى زمـيلاته - وكـانت تعـمل مـدرسة ابتدائية - لـيتحدث للأطفال فى فـصلها عن مصر . ولبـى الفتى الـدعوة مـسرورا . . . وذهـــب إلـى هـــذه المدرسـة الإبتـدائيـة الأمريكية . . . سـنوات طويلة لـم ير خلالـها هذه المدارس ، ربما منذ أن كان هو طـفلا صغيرا . دخل الفصـل . . . وجد وجوها نضرة ، وشفاهـا باسمة ، وعيونا جمـيلة تنظر إلى الفـتى بشوق وكأنها تبـحث عن مصر فيه . . عن التاريـخ الرائع الذى قرأوه أو سمعوا عنه - فى عيون هذا الفتى .

كان الفصل أشبه بحلقة صغـيره التف فيها الأطفال . وكأنهم باقة رائعة مـن الزهور . وكانت المدرسة تجلس وسـط هذه الحلقة كأنها الوردة الكبيرة تنشر عبـيرها على بقية الأزهار . كان الحديث عبـارة عن حوار بين الـفتى والأطـفال ، أدارته المـدرسة بحكـمة وأدب وابتسامـة لم تفارق وجههـا المتألق . كان الأطفـال يسألون والمرح ينتـشر بينهم ، والسـعادة تملأ قلوبهم ، وحـب الاستطلاع يرتـسم على وجـوههم ، والـدهشة الـبريئة تجـلل أساريـرهم ، والفرحة تطل من عيونهم . . . والـفتى يجيب جذلان ، سعيدا ، فخورا . . . والمدرسة تنظم أدوار الأطفـال ، تعلق ، تضيف إلى السؤال أو الجواب ، توجه مسار المناقشة بين تلاميذها . . . كانت جلسة رائـعة . . بسيطة . . اسـتمتع الفتـى بكل لحظة فيـها . ما أجمل أن تتحدث إلـى الصغار ، تصل إلى هذه القلـوب الصغيرة والعـقـول الـيانعة . . . تـراها وهـى تتفـتح للعـلم ، للـنور ، للحضارة .

أعجب الفتى بـالطريقة التى يعلمون بـها الأطفال فى المدارس الأولى . إنهم يهتمون ببناء الإنسـان ، إدخاله للمجتمع ، إدماجه مع الآخرين . . . يوجهـون إهتمامهم ليس فقط لحـشر المعلومات فــى أدمغـــة الأطفـال ، ولكـــن أيـضًا للأنـشطـة الثـقافـية

والإجتماعيـة . . . فهذا زائر يتحدث عن بـلد أو شعب أو عادات معينة . . . وهذا محاضر يتكلم عـن ظاهرة أو مشكلة بعينها . . . وهذه رحلة يسنـدون أمر تنظيمها لواحد أو إثـنين من الأطفال فى الفـصل يساعـدان المدرسـة فى هذه المـهمة ، فيـقترحان مـوقع الرحلة ، والأنشطة الترفيهيـة التى يمكن أن تؤديها المجموعة . . . إلى غير ذلك من الأنشطة والمهام التى يعدون فيها الأطفال لتحمل المسئولية والقيام بأدوارهم كما يجب .

فى المواسم والأعياد مثلا . . يخبرون الأطفال أن هناك اخوة لهم ، أطفالا آخرين فقراء ، لاتمكـنهم مواردهم المادية أن يشتروا لعبا فى العيد . . فليحضـروا إذن لعبهم القديمة إلى المدرسة . . . ويقوموا بـتنظيفهـا وإصلاحها ودهنهـا بأصباغ جديدة ، وتـقديمها لزملائـهم الفقراء . ألا يـنصحنـا رسول الله ﷺ بهذا التـكافل والتراحـم : من كان عنده فضـل زاد فليتصدق به على من لا زاد له . . . كما أن فى هذا السلوك تعويدا للأطفال على الإقتصاد . . عدم الإسراف . . عدم إلقاء الحاجيات القـديمة ، فهناك من يحتاج إليها ويـفيد منها ، فالإقـتصاد نصف العيـش - كما يعلمنـا النبى الكريم ﷺ ، وهـم يفعلون ذلك مـع الكبار أيضًا . إذ تتـلقى مؤسـسة جيش الخـلاص - والتى أنـشأت فى إنجـلترا فى الـقرن التاسـع عشر - كل مـا يفيض عـن حاجات الناس مـن ملابس

ومتاع ، ويوزعونـه على ذوى الحاجـة والفقراء . إن الإحـساس بآلام الآخرين شيء جميل ، ومساعدتـهم على تحمل مشاق الحياة عمل نبيـل . . . فتسرى بين أفراد المجتمـع روح الود والتراحم ، والشعور بـالوحدة والأمان . انظر كـيف ضرب رسول الله ﷺ مثل المؤمنـين فى توادهم وتراحمهم ، كمثـل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وهناك تكـليفات أخرى يسـندونها للأطفـال فى المدرسة . . . رسم صور ، صناعة أشكال وزخـارف . . بناء نماذج . . . خياطة فرش وملابس . . . وقد تكون هذه التكليفات فردية أو جماعية . إنـهم يـنمـون فى الأطـفال مـلكـة الإبداع ومـهارة الإبـتكـار ، ويخـاطبون فيـهم دوافع احـترام النـفس ، واعتراف الآخـرين ، وإثبـات الذات . . فيعـلقون إنـتاجهـم من صور وزخارف عـلى حوائط الـفصول وجدران المـدرسة . . ويعرضون مـنتجاتـهم من نماذج وأشكـال ليراها الناس . . . تـفعل مدارسنـا ذلك أيضًا . . ويذكر الفتى أن المدارس التى تتلمذ فيها قبل الجامعة فى الصعيد ، كانت تفـعل ذلك أيضًا . . فكانـت تقيم معارض دوريـة - جميع منتـجاتها من صـنع التلاميـذ أنفسهم . إن الـعمل المشتـرك يزيد الإنتاج ، ويثير الهمم ، ويعمق التفاهم بين الناس ، ويرفع درجة التـعاون والاستعـداد والرغـبة لبـلوغ الهدف . وهـو أيضًا يثـير

المنافسة ، ويشحذ أفكار المشاركين ، ويدفعهم لتقديم أحسن ما يمكنهم من عطاء . إن النواتج الجماعية ليست حاصل جمع جهود الأفراد ، وإنما حاصل ضرب مضاعف لهذه المجهودات - لذلك لايستهن أحد بما يقدمه من جهد ولو كان صغيرا . . فقد يكون له - فى المحصلة النهائية - أثر كبير .

كما أن اللعب والرياضة يأخذان حظهما الوافر أيضًا فى حياة التلاميذ الصغار فى مراحلهم الدراسية الأولى . فالعقل السليم فى الجسم السليم ، وصحة الأبدان تنعكس على صحة العقول . ولايعتقد الناس أن اللعب أو الترفيه ضياع لوقت الأطفال - كما قد يظن بعض الآباء أو المدرسين . . فترى هؤلاء فى مرحلة الحضانة يكلفون الطفل الغرير بكتابة هذا الدرس أو ذاك ثلاث مرات أو خمس ، وربما فرح الآباء لذلك فالولد يتعلم منذ الصغر . !! . فعلى العكس من ذلك . إن اللعب يفيد عقل الطفل كما يفيد جسمه . . إنه تعبير عن النفس ، تفجير للطاقات الذهنية والبدنية معا ، إطلاق للكوامن الموجودة لديه . . . إن اللعب - فى المراحل الأولى من حياة الطفل - جزء من العملية التعليمية ، مكمل له - لذلك كانت الألعاب التعليمية ، والتى يستخدم فيها الكمبيوتر الآن - إختراعا هائلا لتنمية عقول الأطفال وإشباع دوافعهم للعب فى نفس الوقت .

وكم يرتكب بعض المدرسين من خطأ فادح ، حين يربطون فى أذهان الأطفال بين العلم والعقاب . ذلك بأنهم إذا أرادوا عقاب طفل حرموه من « الفسحة » وكلفوه أن يجلس إلى درجه يكتب هذا الدرس أو ذلك خمس مرات أو عشرا . . . وبذلك يثبت فى ذهن الطفل أن العلم عقاب ، تعذيب . . . وهل يستطيع أن يركز تفكيره فيما يكتب ؟ هل يستفيد من هذا الواجب ، وهو يرى رفاقه يلعبون ويمرحون ، ينطلقون فى فناء المدرسة لايلوون على شىء ، مستمتعين بكل دقيقة يقضونها !!

إن المدرسة الأولى مكملة للبيت ، تساعد على التنشئة السليمة للأطفال . كما أن العلاقة بين المدرس وتلاميذه فى هذه المرحلة ليست علاقة تعليم وتأديب ، وإنما هى علاقة توجيه وإرشاد ، صداقة ، وتبادل للإحترام قبل المعلومات ، وإحتكاك للعقول ، وإتصال بين الشخصيات . . . إن المدرس أب ، وصديق ، ومعلم ، ومرشد ، وناصح أمين . ينقل إلى الأبوين شعوره تجاه الطفل ، ويرشدهما إلى نقاط القوةوالضعف فيه . وينبههما لأى خطر يحدق بالطفل ، مثل عادات سيئة أو إنخفاض فى الأداء ، أو إنصراف عن الدرس ، أو انطواء أو عزلة عن الآخرين . . .

إن العلاقة بـين المدرسة والبيت قـوية مستمرة . يـباشر الآباء فيها أبناءهم ويتابعون مع المدرسين تقدمهم . كما أن هناك يوما أو أسبوعا ، يسمى أسبوع الآباء . . . يسمح فيه للآباء بزيارة المدرسة أثناء اليوم الدارسى، ودخول قاعات الدرس مع أبنائهم والاستماع معهم للمدرسين . وهم بذلك يشهـدون تعليم الطفل وتربيته . . يرون المدرس والتلـميذ . . ربما كانت لهم ملاحـظات على هذا أو ذلك ، أو عـلى الـتلاميـذ الآخريـن ، أو موضـوع الدرس ، أو القاعة التى يـجلسون فيها والظروف المادية المحيـطة بها من إضاءة وتهوية وتصميم ، أو عدد التلاميذ بالقاعة الواحدة . . .

هل من الصـعب أن نفعل ذلك فى مـدارسنا ؟ لا . . بل إن الواجب يـحتم عليـنا ذلك ، أليست هـناك مجالس لـلآباء ؟ لماذا لاتكون هـذه المجالس أكثـر نشاطا ؟ أليـست هناك لـقاءات دورية يعقدها مديرو المدارس مع الآباء ؟ لماذا لايشترك أساتذة الجامعة - فى كلـيات التربـية - ببحوثـهم عن المدارس ومـا يوجد فيـها من مشكلات ؟ وتصـبح الحاجة لذلك ماسة ، فـى مدارس القرى - حيث توجد مشكلات كثيرة ، صحية وإجتماعية ومادية . . .

وإذا كانت نسبة الأمـية لدينا كبيرة ، فإن آثارهـا أكبر ، وأكثر هولا . وقـد كان الفتـى يرى مظاهـر الأمية الكـثيرة منـذ أن كان

صبيا ... من اعراض البعض عن التعليم ، وتساقط أعداد كبيرة في المراحل الأولى ، وإهمال الآباء فى متابعة أولادهم ، وإرتفاع الإتجاه للجريمة ... كان الفتى يرى أطفال قريته - كما يحدث فى قرى أخرى كثيرة على طول خريطة مصر وعرضها - يسبحون فى الترع والبرك ، حيث المياه قذرة ، والأمراض كثيرة .. كالبلهارسيا مثلا ، والتى تقتل عددا لا بأس به من الصغار والكبار على السواء ... كما أن بعض النساء كن يتركن أطفالهن فى صورة قذرة ، وهيئة زرية وملابس متسخة .. نتيجة إهمال أو إنشغال أو عدم وعى ، أو حتى منعا للحسد أحيانا ... فكنت ترى الطفل تتعلق بشعره أو على صدره خرزة زرقاء .. ويعلو وجهه الذباب ، ويطمس عينيه طين أو تراب ، ويسيل من أنفه مخاط ومن فمه لعاب ، ويختلط كل ذلك ... فكأنك ترى لوحة رائعة ساحت عليها ألوان الرسام ، لتعبر عن مدى القبح الذى يريد الناس إظهاره للآخرين . ثم تشكو النساء بعد ذلك من رمد فى عيون أطفالهن ، أو سعال فى صدورهم ، أو آلام فى بطونهم !! حتى بعض الأسماء ، كانت تعكس الخوف من الحسد ، وإفتقار الذوق ... كالحنش ، والغلبان ، وبعرة ، والمنسى ، والعفش ! ... انظر كيف كان النبى ﷺ يكره الأسماء الخشنة الغليظة كحرب ، وصعب وغيرها ... وكان يحولها إلى أسماء سهلة بسيطة يقبلها الذوق السليم .

قطعا لو ذهب هؤلاء الأطفال إلى المدارس لنظفت أجسامهم ، وحسنت هيئتهم ، ونقلوا لأمهاتهم هذا الوعى . . . أين جهود الجمعيات والمؤسسات التى تعمل فى الريف ؟ لماذا لا تتحسن حال الأمهات هناك ، حتى يعتنين بأطفالهن وينشئنهم نشأة سليمة . . فالأم - كما قال حافظ إبراهيم - مدرسة إذا أعددتها . . أعددت شعبا طيب الأعراق . . إن الأطفال هم الأمل ، فلماذا لانقوى آمالنا ؟! هم المستقبل ، فلماذا لانحرص على أن يكون المستقبل زاهرا ، صحيا ، منتجا ، سعيدا باذن الله .



ويسير التعليم بعد المرحلة الأولى بنفس المفهوم والفلسفة ، وعلى ذات القواعد والأسس - بناء الإنسان ، وتربيته ، وغرس روح العلم فيه ، وتعويده على الأنشطة الجماعية ، ودمجه مع الآخرين ، وإعداده ليكون مواطنا صالحا ، مساهما بعلمه وفكره وجهده فى بناء مجتمعه . . . ويهتم القائمون على شئون التعليم - ليس فقط بالتلقين ، ولكن بالتفكير والبحث ، القراءة والإطلاع ، الإلمام بوجهات نظر متنوعة . . . لذلك فهم يعلمون التلاميذ فى مراحل مبكرة حسن التفكير والبحث عن المعلومات

ودقة قراءتها وتحليلها وتفسير معانيها . فيعلمونهم خطوات التفكير المنطقى التـى وضعها مبكرا الفيلسـوف الأمريكى جون ديوى .. بدءاً بتعريف المشكلة وتحديدها ، إلـى جمع المعلومات وتحليلها ، ووضع الفروض وإختبـارها ، وحتى التفكير فى الـبدائل الملائمة للحل ، وإختـيار أنسب هذه البـدائل . وذلك حتى يعـتاد الفرد على مـواجهة المشـكلات ، ويتسـلح بالأسلـوب الفكرى المـلائم لعلاجها ، وحتى يـتعايش مع القضايا الفكرية العـديدة - البسيطة والمعـقدة - التى سـيصادفهـا فى مجـالات العلوم المخـتلفة الـتى يدرسها ويتخصص فيها بعد ذلك .

ويستـمر الطلاب عـلى هذا النـحو ، التفـكير ، والبـحث ، والقـراءة ، والإطلاع ، وكـتابـة الأوراق ... حتـى يبلـغـــوا الجامعـــة ... القلـعة الحصينـة للعلـم ، المعقل الكـبير للـبحث العلمى ... فيتخصص الطالب فى حقله الأساسى ، والفرعى ، ويدرس مـا شاء الله لـه أن يدرس ، ويـبحـث ما وسـعه جـهده وتفكيره أن يبحث .

وللـرياضـة واللعـب نصيـب أيضًا فـى الجامعـة .. فهـناك مسـاحات شاسعـة للملاعـب ، يمارس فيهـا الطلاب شتـى أنواع الرياضة - هواية ودراسة وإحترافا . بل إن بعض الفرق الرياضية

المتنافسة على مستوى المدينة أو الولاية تكون من جامعات بعينها - فى كرة القدم (والتـى يلعبها الأمريكان بأيديـهم !!) وكرة السلة والبيسـبول . . . هذا إلى جانب ريـاضات أخرى ليس لهـا نصيب من الـشهـرة مثـلما لـهذه الألـعاب . . كالـتنـس ، والهـوكى ، والجولف ، والتزحلق على الجليد ، وركوب الخيل . . .

آه الخيل . . . إن لها أثـرا كبيرا فى حياة الفـتى . . . وبصمة واضحة فـى فكره وخيـاله . . . كان يعـجب دائما بـالخيول . . . ويرى فيها جمالا ، وخيلاء ، وكبرياء . الخيل معقود فى نواصيها الخير . وكان يعجب أيضًا بالفرسان الذين يمتطونها . . . كان يرى كثيراً من الخيول فى قريته الصغيرة ، وفى المدينة التى نشأ فيها . . وكان يشاهد رجال الـشرطة يمتطون جيادهم ، فيـخاف منهم . . . لماذا يخاف الأطفال من الشرطة ؟ هل بـسبب المظهر الرسمى الذى يبدون فيـه ! هل بسبب السـلاح الذى يمسكونه ! هـل لأن بعض النسـاء - عن جهل أو دون قـصد - يخوفـون الأطفال بالـشرطى عندما يطلبون منهم إتباع سلوك معين أو الإقلاع عن سلوك آخر ! أم لكل ذلـك ! بعض النـساء لازلن حتى الآن يـخوفن أطفـالهن بالعسكرى أو الطبيب !!

وكان أيضًا يرى الفلاحين يمتطـون جيادهم . . وكانوا يزينون

هذه الجياد بأسراج ملونة . . وأشرطة زاهية . . وكانوا يرقصون بها - فى المناسبات والاحتفالات كالأعراس والطهور والعودة من الحج - على دقات الطبول . . . كان الفتى يتابع بدهشة وإعجاب أقدام الخيل ، وهى تخطو خطوات منتظمة راقصة - لاتكاد تخطئ . . إن لها آذانا موسيقية . . تطرب لدقات الطبول . . وتنسجم مع الموسيقى التى يصدح بها جنود الشرطة - فى الأعياد والمناسبات الوطنية - بأدواتهم النحاسية القديمة . . يضربونها ببعضها فتصدر أصواتا عالية تصم الآذان أحيانا . . . ولكن الخيول تعرفها جيداً وتطرب لعزفها وتأنس لها وترقص عليها .

كان الفتى يتمنى أن يركب أحد هذه الجياد العربية الأصيلة . . . ولكنه كان يخاف من ذلك خوفا شديدا . . . فربما وقع من فوق الحصان ، أو رماه هذا على الأرض . . . كان مجرد التفكير فى هذا يرعبه . . . فينظر إلى الخيول . . ويرى عيونها الواسعة تنظر إليه ، فيشوبه إحساس هو مزيج من الخوف ، ومن الأمل البعيد أيضًا . . . كأن هذه العيون تدعوه للفروسية . . ولكن نظرة سريعة لظهر الحصان وحوافره تبدد هذا الأمل سريعا . . .

كما كان الفتى يعجب بالخيول التى تجر عربات الركوب . . .

كانت دقات أقدامها على الأرض تعطيه شعورا بالسعادة والفرح . . . حتى الأغانى التى كانت تستخدم إيقاع الخيول فى نغماتها ، كان الفتى يطرب لها طربا شديداً . . .

لقد سمع الفتى قصصا كثيرة عن الخيول وهو صبى صغير . . . الشاطر حسن الذى يركب فرسه الأبيض ، ويشهر سيفه ، ويختطف حبيبته . . . يذكر مرة أن كان يجلس مع جدته التى كانت تحبه كثيرًا وتحنو عليه - فى بيت جده الريفى الكبير . . وكانت إحدى النساء الكبيرات تجلس مع جدته فى البهو الواسع . . قالت لها الجدة : إدعى لهذا الولد . . فقالت العجوز : يارب يا ولدى ، تقعد على الكرسى وتركب الفرس . . . لم يفهم الصبى دعوتها . . . سأل أحد أقاربه . فقال له : إن الكرسى رمز للمنصب ، العظمة ، الأبهة . . ألم يكن الفلاحون يجلسون على الأرض ؟ أما العمدة ، والمأمور ، والمدرس ، والضابط . . . فكانوا يجلسون على الكراسى . . على الدكة الخشبية التى يفرشون عليها سجادا - متواضعا أو ثمينا - غالبا من الصناعة اليدوية للنساء اللائى كن ينتجن كل شىء فى البيوت . فكان البيت بمثابة مصنع صغير ، تقوده المهندسات - الأمهات والجدات ، يشغلن فيه بناتهن وحفيداتهن . . ويصنعن

فيه كل شىء . . الخبز والزبد والجبن والفرش والسجاد . . .

أما الـفرس فكـان رمزا للـبطولة ، الـشجاعـة ، الفروسـية والإقدام . فكانت دعوة المرأة العجوز إذن أن يفوز الصبى بمنصب كبيـر ، ويمتطـى حصانا أصيـلا يحقق به أحـلامه ، ويقتـحم به ميدانه ، ويحقق به الإنتصارات التى يطمع فيها .

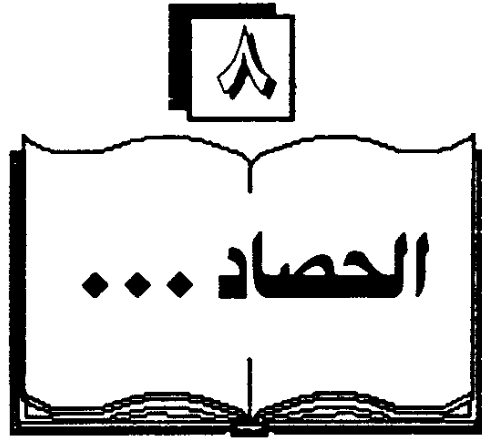
وكان الفتـى يسمع عن الفرس المبـاركة التى كان يقتنـيها أحد أخواله . قالوا عنـها : إن ذيلها الطويل يصبح فى الـصباح الباكر مضفرا . . . وكأن يدا ماهرة حاذقة ضفرتـه بعناية أثناء الليل . لم يره الـفتى مضـفرا أبدا ، ولـكن كان يـطلق لخيـاله العـنان . . . ويسرح بعينيه فى ذلك الذيل الناعم المسترسل الجميل.

كان الفـتى يسمع - عـندما كان صغـيرا - حكايات كـثيرة ، لايدرى الآن إن كـانت من نـسج خيـال النـاس !! أم أنها كـانت حقائـق ويرونها ويـلمسونـها !! أم أنها كـانت تعبـيرا عن آمالـهم وآلامهم . . كتلك الحكاية عن النـور الذى كان ينبثق من بيت أو بيتين من البـيوت القديمة فى تلك القرية . مـا مصدر هذا النور ؟ أهو تلك المـرأة الصالحة التى كـانت تعيش ناسـكة زاهدة ! أم أنه أرواح الناس الذين يـحكون أنهم لقوا حتفهـم فى هذه الأماكن ! لقد خيل للـصبى مرة وهو يمشى مع خاله فى ظلام الـليل عائدين

من الحقل - من شـدة ما سمع هذه الحكاية ، وقوة اقـتناع الناس بها - أنه رأى فعلا بصيصا من نور !

لقد عملت هـذه الحكايات - على ما فيها مـن سذاجة صادقة أو صدق ساذج - على تكوين فكر الـفتى . . . لقد ساهمت هذه الأقاصيص فـى إثراء خياله . . فكان يفـكر فيما يسمـع ، ويطلق لخياله العـنان ، ويكمل الحكايات التـى يسمعها ، ويضيـف عليها ويحـذف منها ويـضع لها نهـايات . . لقد رسم لـنفسه عـالما من صنعه ، يحوم فيه ، ويدور حوله .

كما أن هذه الحكايات فى نفس الوقت قد أعطته الفرصة لكى يتـأمل فيمـا حوله ، ومن حـوله . . يدرس النـاس والأحداث ، بعناية . . . يتسائل . . . يبـحث عن حلول وإجابات . . . أليست هذه هى أولـى خطوات البـحث العلـمى . . السؤال ، الحـيرة ، المقارنة ، شرح الظـواهر المحيطة بنا ، دراسة التفسـيرات المختلفة لها . . .



﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾
سورة الواقعة ٦٤



أتم الفتى مهمته التى سافر من أجلها . . وحاول أن يتقنها ما أمكنه ذلك . لقد شعر يوم حصل على شهادة الدكتوراه بسعادة غامرة . قال له مساعد عميد الكلية فى ذلك اليوم وهو ينظر إليه بإعجاب : ها أنت قد حققت هدفك ! وكان هذا المساعد هو أول شخص قابله فى الجامعة منذ سنين ، حين بدأ دراسته العليا الأمريكية على تخوف واستحياء . ما أحلى النجاح ! وما أجمل فرحته ! وما أسعد الإنسان حين يحقق هدفه ويصل - بحول الله - إلى غايته .

التقط الفتى أنفاسه ، كأنه كان يجرى طوال السنين التى سبقت حصوله على الشهادة الكبيرة - الدكتوراه - آخر الشهادات العلمية . وشعر كأن حملا ثقيلا قد ألقى عن كاهله . .

يتأمل الفتى فيما كان خلال هذه السنين . . . إنه حصاد مشرف . لقد حصل بفضل الله على علم وفير ، ونضجت شخصيته إلى جانب ذلك . كان كل يوم يمر عليه فى بعثته هذه ، يحمل له تجربة جديدة . . . قابل أناسا كثيرين . . شهد أحداثا جمة . . نظر إلى الأشياء من حوله بعمق ، حاول أن يحصل دروسا كثيرة . . كل شيء حوله كان له معنى عنده .

كانت تعجبه دقة المواعيد . . وكان يرى ساعات الحائط معلقة

فى كل مكان فى الجامعة - فى قاعات الدرس ، فى الممرات ، فى الكافتيريا . وكانت مواعيد الدروس تحدد بالدقائق . فترى محاضرة تبدأ فى الثامنة وخمس دقائق مثلا ، وأخرى تنتهى فى الحادية عشرة إلا عشر دقائق . وكان الجميع - أساتذة وطلابا - يلتزمون بهذه المواعيد . يذكر الفتى أن أحد الأساتذة لم يجئ للمحاضرة فى موعده . . فانتظره الطلاب نحو سبع دقائق ، ثم إنصرفوا . فلما كانت المحاضرة التالية إعتذر عن عدم حضوره لظروف معينة ، وطلب من تلاميذه عدم انتظاره إذا تأخر مرة أخرى - أكثر من عشر دقائق. كانت هذه هى المرة الوحيدة التى تخلف فيها أستاذ عن محاضرته طوال سنوات الدراسة التى أنفقها الفتى فى بعثته .

إن الحفاظ على المواعيد صفة من صفات الحضارة . ألا يوصينا الله تعالى بذلك فى كل شأن من شئون حياتنا . فترى جميع المناسك موقوتة بمواعيد محددة . « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (تمرين يومى مستمر) . « ثم أتموا الصيام إلى الليل » (شهر سنويا ، وللمتطوعين أكثر من ذلك) . « وآتوا حقه يوم حصاده » (تمرين سنوى دورى للزكاة) . « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » . « وأتموا

الحج والعـمرة لله » (تمرين واحد فـى العمر ، أو أكثـر من ذلك للمتطوعين). إنه أسلوب راق للحياة ، يجعل لها معنى ، ويعود الناس على النظام ، العمل ، الإنتاج . . .

كان والد الفـتى يعطى أهميـة كبيرة للوقت والمـواعيد . كان يوقـظه مبكـرا ، ويذكر لـه الحـديـث الشريـف : «البركة فـى البـكور» ، ويدفـعه للـذهاب إلـى مدرسته فى الموعـد المحدد . وينتظره عند عودته ، ويجعله يأخذ قسطا من الراحة والغذاء . ثم يدفعه إلى مراجعة دروسه . ثم يجعله ينام مبكرا أيضًا .

وكانت هذه عادة والده أيضًا . . . ينطـلق إلى عمله مبكرا ، يعـود إلى بيتـه فى موعده ، يـنام فى أول اللـيل ، ويصحـو مع الفجر ، يذهب إلى مقابلاته وإجتماعاته فى الوقت المحدد أو قبله بقليل ، يقصد محطة السفـر قبل موعد قيام القطار بوقت كاف . وكان يذكـر لإبنه المثل الشـعبى الذى يوصى بـانتظار مالا ينـتظرك (اللى مايستنـكش استناه) . ولم يكن يطيق التأخـير أو يصبر على التقـاعس عـن الحـــركة . . ويضايـقـه كثيـرًا أن يقعد أبـناؤه عن السعى . . كان شـعلة نشاط تتحرك على الأرض . . طـاقة هائلة لاتحركه هو فقط ، ولكن تدفـع من حوله أيضًا إلى الحركة والجد ومحاولة الفوز فى سباق الحياة .

ورغم أن أحد أمثالنا الشعبية يقول : « ساعة البدرية منسية »، أى أنك تحصل فى الساعة المبكرة على ما لاتحصل عليه فيما بعدها ، وأنك تنهى واجباتك أو ما عليك من إلتزامات قبل الآخرين . . . إلا أن هناك مظاهر كثيرة لعدم التزام الناس بمواعيدهم ، سواء فى العمل أو العلاقات . . حتى الأطباء لايلتزم كثير منهم بالمواعيد التى يكتبونها على عياداتهم أو مستشفياتهم ، رغم ما لذلك من أهمية وخطورة ، فالذين ينتظرونهم مرضى . . والمريض يتطلع إلى الطبيب كما يشتاق الظمآن فى الفلاة إلى الماء .

ربما كانت هناك عوامل كثيرة - بيئية واجتماعية إلى جانب وعى الناس وفهمهم لقيمة الوقت وتقديرهم له - تجعل الناس لايحافظون على مواعيدهم . كبعد المكان ، وإزدحام الطرق ، وكثرة مضيعات الوقت ، وانتشار الفيديو ، وكثافة البث التليفزيونى طوال النهار والليل . . . ولكن تظل قيمة الوقت غالية ، هامة . . . وإلا كيف تحافظ الأمم على تقدمها . . كيف تدفع عجلة إنتاجها إلى الأمام . . . كيف تفوز فى السباق المحموم فى السوق العالمى . . قالت العرب قديما : الوقت من ذهب ، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . . . إن الأمم المتقدمة

تعمل بهـذا القول . . وتترجم الوقت إلـى ذهب فعلا : فرص ، استثمار ، أرباح . . . تنـظر إلى قيمته المستقبلة ومـا ستحصله من نتائج فى الغد إذا عملت اليوم . . .

علـى أن هـذا لايعـنى أن الإنسان يـجب أن يـعمل طـــول الوقت . . . فلابد له أن يستريح ، يلـتقط أنفاسه . فإن المنبت - كما يعلمنا رسول الله ﷺ - لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . . . يجـب اذن أن يتمهـل ، يتوقف بـعض الشـىء ، يمشى بســرعة منتظمة ، يغير المكان الذى يوجـد فيه ، يتريض قليلاً ، المهم هنا أن يفرق الإنسان بين وقت الجد واللعب . فيعطى الأول حقه تمامًا حتى يســتمتع بالآخر . . . يكـد ويعرق ويؤدى واجبه مـخلصا ، حتى يشعر بحلاوة الراحة والترفيه .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية تجـد المجال خصبا رحيبا لكل من الجد واللعب . وكان الفتى يحرص على أن يأخذ نصيبه الوافر من الجد . كما كان يأخذ قسطـه من الراحة واللعب - وإن كانت طبيـعة الدراسة فى فتـرة البعثة المحـدودة بزمن معين ، والمنـافسة الشديـدة مع الآخرين ، وازدحام المنـاهج - وخاصة فى مـرحلة الدكتوراه - بالقراءات والبحوث والإختبارات ، كل ذلك لم يمكنه من الإستمتاع بـنصيب الترفيه . كان هناك مثـلا ولايات كثيرة يود

زيارتهـا . . . وأماكن ومعالم سـياحية كثـيرة كان يتوق لرؤيـتها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . . . (سيتيح الله له زيارة هذه الأماكن بعد سنين ، حين يذهب إلى أمريكا مرة أخرى ، أستاذا زائرا) .

كان الفتى يقضى عطلـة الأسبوع فى الراحة . .أو السفر إلى مديـنة أو قرية أو شـاطئ مجاور . . . مـرة ذهب ليـقضى عطـلة الأسبوع فى أحد المنتجعات التى أقاموها فى الغابات . . . حاولت الشركة أن تجـعل هذا المنتجع بـدائيا بقدر الإمكان . . . لـيس فيه من صور المدنية غير الكهرباء . . تشعـر وأنت تتجول فيه بالطبيعة البسيطة ، الأشجار العالية ، الخضرة الكثيفة ، الهواء النقى . . . أنت تخلع رداء المـدينة هناك ، وتعود إلى نـفسك ، أصلك . . . بسيـطا هـادئـا مستقر الـبال طيـب الخـاطر . . . لامـواعيد ، لا إزعاج ، لا ازدحام فى حركة المرور . . .

هذه مزية الإجـازة التى تقضيـها فى شاطئ أو قريـة أو مكان بعيد . . . تعطيك فرصة للإسـترخاء والراحة . . كأن تسند رأسك إلى وسادة ناعمـة ، تحتويك ، تدلكك ، تدغـدغ أحاسيسك . . فإذا أخـذت قسطك مـن الراحة إلـتقطـت أنفاسك مـرة أخرى ، وإستجمعت قواك ، وإستعددت للإنطلاق . . الجسم الآن مستعد للعمل ، والعـقل جاهز للتفكير . . . العجـلة تلف مرة أخرى ، المحرك يدور بسرعة أعلى وكفاءة أكبر . . .

وكان الفتى يدعى إلى حفلات - فى مناسبات رسمية وإجتماعية - وكان يسمر مع الناس ويقضى وقتا ممتعا . كون صداقات عديدة مع كثير من الناس - داخل الجامعة وخارجها . كان يشاهد حلبات الرقص ويتأمل الناس وهم يرقصون ، بهدوء مرة وبعنف مرة أخرى ، ببطء تارة وبسرعة تارة أخرى . . . وبمرور الزمن اشتد إيقاع الموسيقى وعلا صياحها . وخاصة فى أماكن الترفيه العامة . . تستخدم فى ذلك الآلات الحديثة ومكبرات الصوت إلى درجة تصيب الإنسان بالصمم . . . كان ينظر إلى وجوه الراقصين وأجسامهم ، فيخيل إليه أنهم فقدوا الإحساس بالزمان والمكان . . . أو كأنهم نسوا أنفسهم وما حولهم ، فلا شىء يؤدونه إلا هذه الرقصة . . هذه الحركات العنيفة التى تهز الأجسام والعقول . . ربما يريدون أن يخرجوا من جلودهم ، يذيبوا أحزانهم ، ينفضوا همومهم .

ألا يذكره هذا بحفلات الزار فى الصعيد البعيد !! كان يسمع وهو صبى صغير أن فلانة « عليها زار » !! لم يكن يفهم ما تعنيه هذه العبارة . . . يريد الأهل أن يخلصوها من هذا الزار . تجتمع النساء . . . يعلو لغطهن . . تدق الدفوف . . تتمايل الأجسام ببطء ، ثم يسرع إيقاع الطبول ، فتهتز معه الأجسام بسرعة . .

تكتمل الحلقة ، تتسع ، تشتد همة النساء فى الرقص . . المجنون . . العنيف . . تكاد الأرض تخترق من دق الأقدام عليها . . . يصاحب الطبول همهمات النساء ، وأحيانا صراخهن . . . تستمر الرقصة . . يدوخ البعض ، تميد الأرض بهم . . . ثم تنتهى الرقصة ، بعد ساعة أو يزيد . . . فيسكن الجميع . . . وترتمى الأجسام على الأرض . . . والأطفال ينظرون حولهم فاغرى أفواههم لاتتحول عيونهم عما يحدث . . بعضهم مأخوذ ، والآخر خائف ، والبعض مستمتع . . . وشىء غامض فى هذا الحشد يثير العجب . . . هل هو المعتقدات الخاطئة عند الناس . . هل هو الفراغ . . . الضياع . . . الخوف من المجهول . . . هل هو الدجل الذى يستخدمه محترفون متخصصون مع السذج والبسطاء من الناس !!!



ولايذكر الفتى حلبات الرقص ، وحلقات الموسيقى التى تعقد فى الفضاء الواسع والتى يفد عليها الشباب - طلاب الجامعة والمراحل التى تسبقها أيضًا - من كل حدب وصوب ، يجلسون ساعات يرقصون ويغنون وينصتون للموسيقى الصاخبة ، وربما يبيتون أيضًا ليلتهم على أنغام هذه الموسيقى حتى يطلع

الصبح . . . إلا ويذكر معها « الهيبيز » . وهى ظاهرة شهدها بالكامل ، من وقت بدايتها وحتى إنحسارها . وكلمة « الهيبى » تجئ من فعل له عدة معان ، فهو دلالة على الفرح والبهجة ، وهو يعنى أيضًا أن الشخص يدرك ويتعاطف ويحب ويشارك من يشبهونه - فى العمر أو الجنس أو الميول والإتجاهات .

والهيبيز طائفة من الشباب لم تعجبهم الحياة العصرية ، فقرروا الإنسحاب من المجتمع ، وعدم الإلتزام بقيوده وقواعده . . وخاصة فى اللباس والمظهر والعادات المعيشية . . أطلق هؤلاء الشباب شعورهم ولحاهم ، وعاشوا عيشة أقرب إلى البدائية . فكنت ترى عددا منهم يهاجرون إلى الخلاء ، يسكنون فى بيت قديم أو مخزن مهجور أو شونة تابعة لأحد الحقول ، أو حتى فى العراء تحت الأشجار أحيانا . وكانوا يسمون هذه العيشة «الكميون» . وكانوا يعتقدون أن هذه هى الروابط الحقيقية التى تجمع الناس على الحب والتآلف والتعاطف . . . كانوا يهملون مظهرهم ، ولايهتمون بملبسهم ، ويتصرفون بعفوية ولايلقون بالا لإستنكار الآخرين لهم . . . كانوا يأكلون قليلا ، ويدخنون كثيرا ، ويستمعون إلى الموسيقى فى كل الأحوال .

وقد تزامنت هذه الظاهرة مع انتشار « الماروانا » . وهى نوع

من المخدر كالحشيش أو غيره من المغيبات . . . فأغرق الهيبيز فى تدخينها ، ومعهم كثير من طلاب الجامعة وخاصة الصغار منهم . . . وجدوا فيها هروبا من مشكلاتهم ، أو تذويبا لإحباطاتهم - أو هكذا كانوا يظنون . . . وقد ساعدتهم الماروانا على التمرد . . على الآباء والمربيين . . . كانوا يكرهون الشرطة ويسمون العساكر خنازير ، ويرون فيهم أشباحا تحد من رغباتهم ، وتقيد غرائزهم التى تريد الإنطلاق . . . وكم حدث من تصادم بين الطلاب الهيبيز ورجال الشرطة !

وثار جدل كبير فى أوساط الجامعة والعلماء ورجال القانون . . . فكان رأى يميل إلى ترك هؤلاء الشباب يفعلون ما يريدون . وكان رأى أن ينضبط هؤلاء وينخرطوا فى القنوات الرسمية للمجتمع ، فهم جزء منه لايجب أن ينشق عنه ، وأن الخسارة ستلحق الطرفين إذا حدث هذا الإنشقاق . وكان هناك رأى ألا تسجل الجريمة الأولى لتدخين الماروانا فى سجل حياة الطالب حتى لا تؤثر على مستقبله - الوظيفى والمعيشى - على أساس أنه ربما وقع فريسة لإغراءات الآخرين أو ضحية لأوهام سرعان ما إكتشف زيفها .

وإنقسم الناس بشأن الهيبيز إلى طوائف شتى . فمن فريق

يتعاطف معهم ويؤيدهم . إلى فريق آخر يعجب بهم وبشجاعتهم وإعلانهم رفضهم . وفريق ينكر عليهم ما يفعلونه ويراه ضربا من الجنون . وفريق يطالب بوقف هذه الظاهرة قبل أن تستشرى فى المجتمع وتعطل مسيرة تقدمه . وفريق لايبالى بما يحدث ، وربما اعتقد أن هذا سلوك طارئ سيختفى وحده . وطائفة ترى أن ظاهرة الهيبيز إفراز طبيعى للإحباط الشديد الذى يصادفه الشباب ، فى مجال التعليم ، والبحث عن فرصة عمل ، ومحاولة شق طريقه فى الحياة .

كما أن هناك طائفة من الناس أرادوا أن يجربوا عيشة الكميون مع هؤلاء الشباب . ولكن منعهم من ذلك الحياء والخوف من إنتقاد الآخرين ، أو منعتهم مراكزهم والوظائف التى يشغلونها من أن يسلكوا هذا السلوك . بل إن بعض الناس الذين كانوا يعملون فى وظائف ذات شأن - مديرين وغيرهم . . . دخلوا حياة الهيبيز . ولكن عاشوا حياتين . الأولى أثناء النهار ، يذهبون إلى أعمالهم ويؤدون واجباتهم كأحسن ما يكون الأداء ، وكما يتوقع منهم المجتمع وتتوقع منهم المؤسسات التى يعملون بها - يكدون ويتنافسون ويستبقون للوصول إلى الأهداف المناط بهم تحقيقها . وأما الحياة الثانية فتبدأ فى الليل . . . يخلعون رداء الحضارة . . ويجربون حياة البداوة . . . يتخلصون من جلدهم

« الزائف » أو القناع الذى يطلب منهم المجتمع ارتداءه . . . ويضعون جلدا أو قناعا آخر ، يعدونه من وجهة نظرهم طبيعيا وتلقائيا . . ويطلقون لما أسماه فرويد « الهى » العنان ، بعيدا عن قيود المجتمع وضوابطه ورقابته . . . . وكانوا يسمون هؤلاء الناس « هيبيز منتصف الليل » .



وشهد الفتى حدثا آخر ، تزامن مع ظاهرة الهيبيز ، والرفض الشائع بين الشباب لقيود المجتمع وأساليبه الرسمية المعتادة . فأراد بعض الطلاب ذات صيف أن تكون الدراسة بالجامعة مفتوحة . بمعنى ألا يكون هناك إلزام بمواد معينة وساعات محددة ، ذات تركيب موضوعى مقنن ، وإمتحانات رسمية دورية . . . وإنما يدرس الطلاب ما يريدون أن يدرسوا . . . ويناقشوا الموضوعات التى يفضلون أن يناقشوها . . . وأن يربطوا كل ذلك بالمشكلات التى تواجههم ومعطيات العصر ومتطلبات الحياة التى يعيشونها . وإختار الطلاب لجامعتهم المفتوحة أن يجلسوا فى العراء أيضًا . . . فهى إذن جامعة مفتوحة المكان ، والزمان ، والموضوعات ، والجمهور . وإنضم إلى هؤلاء الطلاب فريق من الأساتذة الذين تعاطفوا معهم ، وإقتنعوا بفكرتهم ، ورأوا فيما يقولون مطلبا عادلا ، ورأيا عمليا ، وإتجاها بناء .

وإجتمع الطلاب والأساتذة . . وإنضم لهم من إنضم - بدافع الفضول أو الاقتناع أو التجربة . . . وبدأوا يتكلمون فيما يعن لهم من موضوعات . . . ويلتحمون فى مناقشة ما يترائى لهم من قضايا . . . مع بعضهم ، ومع الأساتذة . . . وبدأت الحلقة تتسع ، وتشبه إلى حد ما عواميد الجامع الأزهر بمصر . . . غير أن الأخيرة كانت تتميز ببناء معلوماتى واضح ، وجرعات مقننة يقدمها الشيوخ لتلاميذهم خلال فترات متتابعة . . . ولكن حلقة الجامعة المفتوحة كانت أقرب إلى جلسة المصطبة - على صغرها - والتى كان يجلس فيها الأصدقاء والمقربون - فى ريف مصر - قبل غروب الشمس ، وبالليل ، يسمرون ويتكلمون فى مشكلاتهم ويستعرضون أحوالهم ويأخذون المشورة من كبارهم وذوى الرأى . .

اتسعت حلقات الجامعة المفتوحة ، واجتذبت أعدادا متزايدة من الطلاب . . من كافة التخصصات . فالتخصص غير ذى بال هنا . . . ما دامت الموضوعات تهم العامة وتشغل أذهان الجميع . ومن يهتم بموضوع فليأت لمناقشته . . . ومن يجد مشكلة معينة - علمية أو إجتماعية . . - فليطلب اثارتها ويتعرف على آراء الأساتذة بشأنها . . .

غير أن هذه التجربة لم يكـتب لها النجاح أو الإستمرار . . . فتر - بالـتدريج - ذلك الحماس الـذى كان مشتعلا عـند الطلاب وبعـض الأسـاتذة فـى بداية الـفكرة . كما أن الحـلقات الـتى اتسعـت ، بدأت تضيـيق مرة أخرى . . . وينـصرف عنهـا الناس واحدا بعـد الآخر . . . ثم كان أن إختـفت لقاءات الطـلاب بعد سقـوط الأمطار ! فـأين يذهبـون ؟ إلا أن يعودوا إلـى فصولـهم القديمة . . التقليدية التى لفظوها سابقًا .

أما إدارة الجامعة فقد تركت هؤلاء الطلاب والأساتذة يفعلون ما بدا لـهم . لم تعـترض عليـهم ، ولكنـها فى الوقـت ذاته لم تستـجب لمطالبـهم . وظلت المواد الجـامعية - بتـركيبها الـرسمى وساعاتـها المحددة ومحاضـراتها المعـتادة - كما هى . وإسـتمرت الشروط المطلوبة لـلحصول على شهادة معينة كـما كانت . كل ما هنالـك أن الجامعة رأت فيـما يفعلـه الطلاب فرصـة للتعبـير عن أنفسـهم ، والتنفـيس عن الإحباط الـذى يواجهونه فـى الدراسة الرسمية الجادة - الصعبة كـذلك . وربما أرادت منهم أن يخوضوا التجربـة حتى يكتشفـوا بأنفسهم أنهـا ليست عمليـة . فكل شىء يحتاج إلى تخـطيط وتنظيم ورقابة . ولا تستـطيع أن تترك الأمور تجرى عـفو الساعـة ، أو حسب أهـواء الناس ، أو كـما تتطـلب الأحداث - الـتى قد يخـتلف النـاس فى وزنها ودرجـة أهميتـها

وصلاحيتها للدراسة والبحث . كما أن الأمر يحتاج إلى قيادة واعية . . حريصة على إنجاح جهود الناس وبلوغهم الأهداف التى يريدونها .

ثم إنه من قال إن الجامعة لاتهتم بمجريات الأحداث ! إن الجامعة جزء من المجتمع . . وهى قلعة البحث ومنارة الفكر . فإذا كانت هناك مشكلات عملية . فإن الجامعة - إلى جانب مراكز البحوث الأخرى - تدرس هذه المشكلات . . . ترسل إلى الميدان فرق البحث تجمع البيانات وتحللها وتفسرها ، وتقدم العلاج الملائم لها . . . يسرى هذا على المشكلات الفنية والإقتصادية والإجتماعية . . . ربما كان هناك تقدم فى البحوث الفنية . أما الجوانب الإجتماعية ، والإنسانية ، والنفسية ، فلا زالت لا تأخذ حظها من البحث العلمى . كما أن أحدا لم يستطع أن يقدم علاجا مناسبا أو شافيا للأمراض الإجتماعية العصرية ، كما يحدث فى حال الأمراض العضوية أو المعضلات التكنولوجية .

هل استطاع أحد أن يحل مشكلة الإدمان مثلا ؟ أو يمنعها قبل حدوثها ؟ أو يقنع الشباب بعدم الوقوع فيه ؟ أو يحكم العوامل المؤدية إليه ؟ وهل استطاع أحد أن يقدم تفسيرا واقعيا لمشكلة

الغياب : غياب التلاميذ فى المدارس والجامعات ! وغياب الموظفين والعمال عن العمل ! إن الأسباب تختلف ، والعوامل المتداخلة فى هذه الظاهرة كثيرة . ثم إن أسباب الغياب اليوم ليست هى نفس أسباب غياب الأمس ، وستختلف بالتأكيد عندما ندخل فى القرن الجديد . ومن ثم فإن علاج الغياب الذى اتبع قديما ، لن يجدى اليوم أو غدا - مع تقدم ثورة المعرفة والتكنولوجيا ، وتعدد المغريات ووسائل الترفيه ، والتسابق للحصول على المتع الحسية والسلع المادية والسعادة الوقتية . . .

وينطبق نفس المنطق على ظواهر نفسية واجتماعية أخرى ، كالتعايش مع النفس ، والإختيار المهنى ، والتكيف مع البيئة ، والصداقة ، والزواج ، والعلاقات الأسرية . . وكثير غيرها . إن الجامعة وحدها لاتكفى هنا . . فلابد من تضافر جهود العلماء والمتخصصين وقادة الفكر والرأى ، فى الدين ، وعلم النفس والإجتماع ، والقانون . . . ولابد كذلك من التنسيق مع الهيئات المعنية كمراكز البحوث والدراسات .

فإذا تكاملت هذه الجهود استطاعت أن تصل إلى تفسير واقعى للمشكلات المحيطة والتى تختلف من المدن إلى القرى إلى الصحراء والمناطق البعيدة . وأهم من ذلك تصل إلى الحلول

الملائـمة لهـذه المشكـلات . بل إن الأمـر يـتطلـب النظر إلـى المستقبل ، واستشراف المشكلات الـتى يمكن أن تستجد ، والعمل من الآن على حلها أو تفاديها أو التخفيف من حدتها .



يذكـر الفـتى أنـه فى بدايـة موجـة العنـف التـى اجتـاحت المجتمعات ، والـتى لم تكـن بالتأكـيد بالصـورة التى هـى عليها الآن . . . نادى المـعنيون والمـتخصصـون والعلـماء ، كما طـالب الكونجرس أيضًا بوقف عرض أفلام العنف ومسلسلات الضرب أو الحد منها .

وكانت رياضة الـكاراتية قد بدأت تنتشر عـلى نطاق واسع ، وأقبل الشباب عليها يتعـلمونها ، فى النوادى والملاعب . . . وبدأ يظهـر عدد من الأفلام السيـنمائية ، تسـتغل إعجاب النـاس بهذه الريـاضة . فاشـتد الإقبال عـلى هذا الـنوع من الأفـلام ، الذى لاقصة فيه ولامضمون أو حبكة روائية - فى أغلب الأحوال . . . ولكن ضـرب هنا وهناك . . . هجـوم ودفاع . . . يكيل المـمثلون لبعضـهم طول الفيلم ، لكـمات وركلات . . . لو كانت حقـيقية لقضى عليهم بالموت أو الجنون .

وقد احتلت هذه الأفلام - لفترة معينة - مكانة أفلام رعاة البقر .. وإن كانت للأخيرة لمسات فنية وإنسانية .. قصة وحبكة درامية ... كما أنها تعتبر جزءاً من تاريخ الغرب .. ولهذا النوع من الأفلام جمهوره العريض - من الكبار والصغار ... وكانت تحرص هذه الأفلام سابقا على أن تصور راعى البقر إنسانا ، خيرا ، شجاعا ، ينتصر للحق ولايسكت عن الشر ويرفض الضيم ويرد الظلم عن الآخرين ... هذا بالإضافة إلى اللمسة الجمالية فى مثل هذه الأفلام .. كالرقعة الخضراء الواسعة ، والخيول النشطة الرشيقة ، وسحر التاريخ القديم .. ولكن مع كل هذا كان إطلاق النار يلعب دوراً كبيراً .. وكنت ترى راعى البقر فى هذه الأفلام يده على مسدسه ، مستعد دائمًا أن يجرده من غمده .. والشخص الحاذق هو الذى يسرع فى تناول المسدس وتصويبه ، والشخص الأحذق هو الذى يطلق النار قبل غريمه ...

خشى العلماء والمربيون على الأطفال والشباب من ظواهر العنف ... وإرتفعت أصوات تنادى بخفض المساحة التليفزيونية المخصصة لأفلام الضرب ومسلسلاته ، أو تأخير عرضها بعد أن ينام الأطفال .. كما إرتفعت شكاوى الآباء من تعلق أطفالهم بهذا النوع من الأفلام ، وإنفاقهم ساعات طويلة أمام هذا الجهاز

الساحر الفارغ الذى يسيطر على خيالهم ، ويسرق منهم أوقاتهم . . . وأخطر من ذلك عقولهم ، فيعجبون بما يرون ، ويقلدون « الأبطال » الذين يشاهدونهم يتحركون على الشاشة أحياء . . أصحاء . . أقوياء . .

غير أن المسلسلات لم تتوقف ، والأفلام لم تتعطل ، والعنف لم ينخفض ، بل إنه فى إزدياد مستمر ، حتى لأنه أصبح ظاهرة يومية معتادة فى المجتمعات الغربية المتقدمة يمكن أن يصادف الإنسان جانبا منها فى شوارع المدن الكبيرة كنيويورك مثلا . . . وهناك فئات متخصصة من الأشقياء الذين يستخدمون العنف . . فمنهم من يهاجم النساء ، ومنهم من يتعرض للرجال ، ومنهم من يقصر نشاطه على سكارى الليل ، ومن يسطون على المنازل . . . إلى آخر هذه الأنواع . . وهو مسلحون ، يمشون وفى جيوبهم مسدسات وبنادق . . . وأراد الناس أن يدافعوا عن أنفسهم ، فاشتروا بدورهم مسدسات وبنادق . . .

لقد كان يثير الفتى دائمًا فى قريته أولئك الذين يحملون السلاح ويجوبون به الطرقات . . . إنه فى حالة البعض ضرورة ، كالذين يبيتون فى الحقول ، ويتعرضون لهجوم ليس من الناس ، ولكن من حيوانات شرسة كالذئاب أو الضباع . . .

ولكـــن مـــاذا عـــن حـمل الـسلاح فـى الأعراس والمـوالد والأفراح . . . شهد الفتـى بعض هذه المهرجانات التى يلـتقى فيها الناس فرحـين مبتهجين - للـزفاف أو الطهور أو العـودة من سفر بعيـد . . . وكان بعض الـرجال يحمـلون بنادقـهم فى مثـل هذه الأفراح ، ويطلقون منها أعيرة نارية إبتهاجا وسعادة !!

هل فى إطلاق النار إبتهاج .؟ هل فى ترويع الأطفال والنساء والرجال سعـادة ؟ وياليت الأمر يقتـصر على الرعب الـذى ينتاب الناس ! إنه أخطر من ذلك بكثيـر . . فقد يصاب شخص أو يقتل آخر . . كما نقرأ فى الصحف منذ سنين ، وكأنه خبر واحد يتكرر دائمًا بصور متعددة وأشخاص مختلفين .

حضر الـفتى . أحد هـذه الأعراس فى قريـته ، عندمـا كان صبـيا صغيـرا . . . وكانت إحدى قـريباته فـى الحفل . . صبـية صغـيرة لم تـتجـاوز العاشرة مـــن عمـرها . . جمـيلة كـالوردة الناضـرة ، رقيقة كالزهرة تناجى الهواء العليل . . . كانت تمرح مع صويحباتهـا . . كن يتابعن العرس فرحات مـرحات سعيدات . . . وربما تخيلت كل واحدة منهن نفسها فى المستقبل القريب مثل هذه العروس التى يحتفل بها اللـيلة . . وربما رسمت كل واحدة منهن صورة لذلك الـفارس الذى سيكون مـن نصيبها . . . إنـها أحلام

اليقظة . . الجميلة ، الوردية ، السعيدة . . . التى تعطى الناس - صغارا وكبارا - شعورا بالتفاؤل والأمل وإستمرار الحياة .

كانت الصبية تنظر من النافذة بشغف تتابع العرس . . . والبهجة تملأ قلبها الصغير ، والإبتسامة لاتفارق وجهها . . حتى جاء ذلك الرجل الغاشم . . وصوب بندقيته فى الهواء ، يحيى العريس وأهله ، ويسهم فى هذا المهرجان برصاصه . . . وأطلق النار . . . لتصيب البنت فى عينيها . . . فقدت الصبية نور عينيها فى لحظات . . .

أسرعوا بها إلى المستشفى ، فى البندر المجاور . . . حاولوا إنقاذها . . . لابد أنها الإمكانات الضئيلة التى لم تمكنهم من ذلك . . . أو لابد أنه إهمال الأطباء أو ضعف مهارتهم أو حيرتهم من هول الحادث . . . ولابد أنه القدر المحتوم قبل هذا وذلك . وعاشت الفتاة بقية عمرها كفيفة ، تثير شفقة الناس ، وتعصر قلوب أمها وأبيها وإخوتها لآخر العمر .

لماذا يتجول الناس بأسلحتهم هكذا ؟ دون ضابط أو قيود . . . إن النفس الإنسانية ضعيفة . . . وقد ينزغ الشيطان بين الناس . فينفعلون ، فتسرع أيديهم إلى أسلحتهم ويستخدمونها فى غير مواضعها . .

يذكر الفتى أنه ركب قطار الـصعيد مرة فى إحدى رحلاته من القـاهرة إلى بـلدته . . . كـان يجلـس إلى جـواره رجل يحـمل بندقيته . . لم يلق الفتى بـالا للأمر . . فهو يرى كثيرا من الناس - رجال الشرطة والخفراء والحراس إلـى جانب بعض الفلاحين - يحملون أسلحـتهم على أكتافهم . ولكن أحد الـريفيين الذى كان يجلس فـى الكرسى المقابل ، شـاهد البندقية فـى يد الرجل . . ويبدو أنه أعجب بها ، فسأل الرجل أن يعطيها له . . . فسلمها له الرجـل بأريحيـة وشهامة كـبيرة . . . وأخـذ الريفى يـقلبهـا وهو معجـب بها يمسـح عليهـا وينظر إلـيها طولا وعـرضا . . . وصاح مادحا : هذه بندقـية مليحة ، ثم ضغط علـى الزناد . . . وأطلق رصاصة طـائشة ، مرقت مـن نافذة القـطار كالسهـم وطارت فى الهواء . . . وذعر الفتى ، وروع الأطفال ، واسـتيقظ النائمون ، وكان شعور المـسافرين مزيجا من الـهلع عند بعضهـم ، والدهشة عند الآخرين ، وعدم المبالاة عند فريق ثالث .



ولم يخـطر ببال الـفتى أنه سيـقابل يوما مـا أثناء بعثـته فى أمريـكا ، أحد الـذين كانـوا يستخـدمون العـنف ، وعلـى وجه التحديـد السطو على البـنوك . فقد تخصص فـى هذا المجال مع

أشقياء آخرين وقضى فترة العقوبة بالسجن ، ثم خرج تائبا مواطنا صالحا فى المجتمع ، يعمل مندوب بيع لإحدى شركات السيارات الكبيرة . . . وكانت قصته كما يلى .

ذات صباح قارس البرودة ، سافر الفتى من المدينة الصغيرة الجامعية التى كان يقيم فيها إلى مدينة كبيرة ، حيث تقع إحدى الشركات التى سيزورها اليوم ، والتى كانت تقع ضمن عينة الشركات التى يبحثها لرسالته للدكتوراه. وما أن هبط من الباص ، حتى قصد محطة وقود يسأل فيها عن موقع الشركة . . . وكان يقف فى المحطة رجل وقور ، يلبس معطفا ثقيلاً غاليا ، وقبعة أنيقة ، ويضع يديه فى جيوبه . . . أجاب الفتى بأن الشركة تقع فى شارع كذا ، المتفرع من شارع كذا ، وهى على بعد خمس دقائق من محطة الوقود . . ثم تطوع ليأخذ الفتى فى سيارته يوصله إلى هناك . . . وهذا أمر لايحدث كثيرا - أو قد لايحدث مطلقا - فى المدن الكبيرة . . . حيث كل فرد مشغول بشأنه ، الجميع يسعون ، يريدون اللحاق بمصالحهم ، وكأن أشباحا تطاردهم . . . ولا أحد يلتفت لغيره أو يوقف مسيرته ليساعد الآخرين . . .

يذكر الفتى أنه كان يقود سيارته مرة فى الطريق السريع

المفتوح بين مدينتين ، ورأى من بعيد سيارة تقف على الجانب الأيمن من الطريق وقد اضطرمت فيها النار ، واندفعت منها ألسنة اللهب . . . فهدأ من سرعته حتى يتمكن من الوقوف بالقرب من السيارة ، ليقدم ما يمكنه من مساعدة لصاحبها الذى كان يقف إلى جانبها عاجزا ضائقا حيران . . . وكانت السيارات تمرق من جانبه كالسهام . . وأخرج بعض سائقيها رءوسهم من النوافذ ، وسبوا الفتى لبطئه فى الطريق السريع ، المجنون . . . والعجيب أن صاحب السيارة المحترقة أيضًا دهش أن أحدا قد توقف لنجدته ، فهو لم يتوقع ذلك أبدا ، إلا أن تكون سيارة الشرطة أو الإطفاء . . . وطلب من الفتى بأدب أن يبلغ إدارة الإطفاء حتى تأتى لإنقاذه . .

إن فى المدينة طابعا يطبع الناس بأنانية شديدة . . وربما لايتورع شخص أن يدوس على أقدام الآخرين حتى يصل . . . سبحان الله . . . حتى فى المدن الصغيرة يمكن أن يحدث هذا . . . فمرة كان الفتى عائدا بسيارته من الجامعة إلى منزله بالليل . . . ولمح أحد زملائه الطلبة الأمريكيين يمشى فى الطريق المعاكس قاصدا منزله . . . وكان الفتى يعلم أين يسكن هذا الزميل ، إن بيته مازال بعيداً . . وكان الجو باردا . . فحدثته نفسه أن يرجع ليأخذ هذا الشخص لبيته . . . فلن يستغرق الأمر

أكثر من عشر دقـائق بالسيارة ، أليس من حقوق الـزمالة أن يفعل المرء ذلك ؟

وركب الزميل شاكرا . . . ولكنه مـا أن علم أن الفتى قد غير اتجاهه ليوصله إلى منزله ، حتى أنكر ذلك ، ولامه عليه ، ونقده قائـلا : لاتغيـر وجهتك لأحـد مهمـا كان الأمر . . . إمـض فى طريقـك ، مادمت ماضيـا فيه !! إذن قد يبـدو فعل الخير أحـيانا منافـيا للعرف ، أو لثـقافة شعـب معين ، أو مـدينـة أو حـى أو قبيـلة . ولكن رغم ذلك سـيظل الصحـيح صحيحا أبـد الدهر ، وكما قال الشاعر :

من يعمل المعروف لايعدم جوازيه   لايذهـب العرف بين الله والناس

والدليـل على ذلك ، هذا الـرجل الذى قابـله الفتى بمـحطة الوقود ، وعرض عليه أن يوصله بسيارته إلى حيث يريد . . . إنه أراد أن يمد يد العون لغريب عن المدينة . . .

ركـب الفتـى سيـارة الرجل شـاكرا . . وسألـه الرجـل عن موعده ، وكان بعد ساعة تقريـبًا . . . فعرض عليه أن يضيفه . . وذهبا إلى كافتريا مجاورة وقدم الرجل للفتى قهوة ساخنة ، بددت ما كـان يشعـر به من بـرد وعطـش . . . وتجاذب الإثنـان أطراف الحديث . . . وعـلم الرجل بـالمهمة الـتى جاء الفـتى من أجلـها

وأعجب بها ، حتى أنه ناقشه فى بعض جوانب النظرية التى كان الفتى يبحثها فى رسالته . . كما سأله ماذا ينوى أن يفعل بعد أن يحصل على شهادته .

وأخبره أنه يعمل مندوبا للبيع بإحدى الشركات الكبرى للسيارات . وكان مكتبه على مقربة من المقهى . . فذهبا إليه . . كان مكتبا واسعا فسيحا تحوطه حوائط زجاجية . ولم يتوقع الفتى أبدا أن يكون هذا الشخص فى سابق عهده ، أحد أفراد العصابات التى كانت تسطو على البنوك .

إنكمش الفتى فى كرسيه ، وانتابته وحشة ودهشة وربما خوف . . . ونظر إلى الرجل كأنه يريد أن يعرف هل هو مازح أم صادق !! فضحك الرجل وأخبره أن ذلك كان فى السابق . . . لقد إقتحم مع زملائه أكثر من عشرين مصرفا . وكان مجموع العقوبة التى حكم بها عليه - بعد أن أمسكته الشرطة وقدم للمحاكمة - مائة وخمس عشرة سنة سجنا !

سأله الفتى وهو مأخوذ : وهل كنتم تفعلون فى البنوك التى إقتحمتموها ، مثلما نرى فى أفلام السينما التى تصور هذا النوع من الجرائم ؟ ترعبون الموظفين ، وتغتصبون النقود بالقوة ، وتنصرفون بسرعة متهددين متوعدين ؟ قال : تمامًا كما نرى فى أفلام السينما !

دخل الرجل السجن ليقضى فترة العقوبة ، والتى حتما كان سيموت قبل أن يتمها . ولكنه لم يلبث فى السجن من هذه الفترة سوى ثمانى عشرة سنة فقط !! ماذا فعل خلال هذه السنوات الطويلة ؟ أنفق وقته كله يقرأ كتب القانون فى مكتبة السجن . كان يريد أن يبرأ نفسه . . . كان يبحث عن منفد أو ثغرة قانونية ينفد منها إلى الخارج . . إلى الحرية ، والهواء ، والنور . قرأ كل كلمة وحرف فى القانون . . . طلب كتبا كثيرة . . إنكب عليها يدرسها . . . حتى تخصص فى القانون - بلا مدرسة ولا جامعة ولاشهادة رسمية .

ووجد الثغرة التى كان يبحث عنها بعد هذه الثمانية عشر عاما . . . وخرج من السجن . . . إنه يصلح - علما وتأهيلا - كما قال للفتى أن يكون محاميا . . ولكن لايستطيع ممارسة المحاماة بحكم سوابقه . . . إذ كيف يترافع ويدافع عن المتهمين ، وكان فى الماضى منهم . . كيف - كما قال أحمد شوقى - يداوى القلب من لا له قلب !! أما إحدى الجامعات فى المنطقة فقد استضافته أستاذا زائرا يدرس بها القانون . . . إنه الآن يمتلك مهارة كبيرة . . فقد جرب القانون مرتين - هاربا منه ومحاربه ومتحديه ، ومقبلا عليه باحثا متأملا فيه . . . خائفا من بطشه وسلطانه وسطوته ، راجيا متعلقا فى منافذه ومخارجه . . .

إنه القبيح الجميل ، الظالم العادل ، المجرم التائب ، المتهم البرئ . . .

قص على الفتى - خلال الساعة التى إلتقيا فيها - جانبا من مغامرته الكثيرة . وكيف أنه كان ينفق المال ببذخ . . فكما كان يحصل عليه بسهولة . . كان يصرفه أيضًا بسرعة . . . كان يرتاد أماكن اللهو واللعب . . . يسافر إلى بلاد متنوعة . . . يعيش حياة ملؤها البذخ والترف . . . ولما علم أن الفتى مصرى ، أخبره أنه إلتقى مع الملك السابق فاروق كثيرًا . . ولعب معه الورق . . وحكى له كيف أن الملك كان إجتماعيا ، حاضر البديهة ، سريع النكتة . . ينفق بلا حساب . . ويحاط دائمًا بالمعجبين . . وله أصدقاء من شتى أنحاء العالم .

وأخرج الرجل من مكتبه ملفا يحتوى على صور وقصاصات كثيرة من الورق ، أطلع الفتى عليها . . . هى حصيلة ما كتبت عنه الصحف . . إنه رجل مشهور ، يعيش الآن فى منزل كبير ، توجد به ثمانى غرف واسعة ، يعوض بها - كما قال ضاحكا - الضيق الذى كان يعانى منه فى السجن . كما أخبر الفتى أن إحدى شركات الإنتاج السينمائى ، ستنتج قصته قريبًا فى فيلم مثير . . .



صادف الفتى إذن كثيرا من الناس . . . وشهد كثيرا من الأحداث . . . وكون عديدا من الصداقات . . . قابل أناسا من بلاد مختلفة . . . منهم طلاب العلم ، والأساتذة ، وأصحاب الشركات ، والأطباء ، والمديرون . . .

يذكر الفتى بود شديد ، جاره الأمريكى العجوز الذى كان يجلس فى شرفة منزله ، وحيدا إلا - على ما يبدو - من ذكرياته وآلامه . . . عندما كان الفتى يغادر بيته قاصدا الجامعة - وكان هذا أول بيت سكن فيه فى المدينة التى كانت توجد بها الجامعة - يمر بمنزل الرجل . . . فيحيه هذا دون أن يعرفه . . . ثم إعتاد على رؤيته ، حتى أصبح بمرور الوقت يرحب به ويبتسم عندما يراه قاصدا الجامعة أو عائدا منها . . . وكان أحيانا يستوقفه ليقول له كلمة أو كلمتين . . كيف حالك . . الجو اليوم بديع . . . إنها الوحدة ، والعزلة التى تتزامن مع كبر العمر . . . لقد خيل للفتى أن هذا العجوز ينتظره ، ويتوقع أن يسأل عنه ، وربما يفتقده إذا لم يره صباحا أو مساء . . . لقد عثر على صديق - وإن كان على بعد - فلم يزد ما يقولانه عن كلمات معدوده . . . ولكنها بالتأكيد كانت تعنى الشىء الكثير للرجل الكبير . . .

وذات صيف استأجر الفتى غرفة فى أحد المنازل . . وكانت

صاحبة البيت أيضًا سيدة كبيرة ، تفرق من حولها الأهل والأقارب . . لا أحد يسأل عنها ، إلا مكالمة هاتفية فى عيد ، أو بطاقة بريد فى العيد الذى يليه . . كانت تعيش وحيدة لايؤنس وحشتها سوى كلبة صغيرة مدللة ، كانت تصطحبها قائمة وقاعدة ونائمة . . .

وكان الفتى يضيق بنباح الكلبة ، وقفزها حوله ، وجريها هنا وهناك ، وإلتصاق شعرها الأبيض بملابسه وأثاث البيت . . . وما لبثت الكلبة أن علمت أن الفتى لايميل إليها كثيرا . . فكانت حين تراه تلوذ بسيدتها التى ضاعفت لها جرعة الحنان .

إن من حق الكلاب أن تعيش وتأكل وتلعب . . ولكن كان يثير دهشة الفتى ذلك الكم الهائل من السلع التى ينتجونها للحيوانات الأليفة : القطط والكلاب ، من المواد الغذائية ، إلى اللعب ، ومنظفات الأسنان ، والفيتامينات . . . ويعرضونها فى الأسواق بعناية ، ونظافة ، وشكل جذاب . . . ويعلنون عنها فى التلفزيون . . . فترى هذه الإعلانات تصور الحيوانات الأليفة وكأنها فى مرتبة الإنسان . . . كان أحد الإعلانات عن سلع الكلاب يقول : إنه ليس مجرد كلب . . إنه أكثر من كلب . . إنه عضو من أعضاء العائلة . . .

يذكر الفتى إحدى القصص المثيرة التى كتبها أمين يوسف غراب فى أحد كتبه منذ زمن ، عن كلب مدلل يأكل قطعا كبيرة من اللحم ، وعسكرى الدرك الذى لم يكن يجد ما يتبلغ به . . . إن ذلك يحدث فى بقاع كثيرة من العالم ، منها أمريكا ذاتها . . . فعندما كان الفتى يقرأ عن ظاهرة الفقر فى أمريكا ليكتب بحثا عنه ، لم يكن يتصور أبدا أن فى بلد الوفره والغنى فقراء ، ومساكين لايكادون يجدون قوت يومهم . . . ولكن . . . سبحان الله ، يوجد الفقر والغنى فى كل مكان . وهى ظاهرة نسبية . . . فالفقير فى بلد معين قد يكون غنيا بمقاييس بلد آخر ، والعكس صحيح . . . إنها الفرص ، والدخول التى يعيش عليها الأفراد ، وقدرتهم على الحصول على السلع والخدمات المتاحة ، والإعانات التى يحصلون عليها من مؤسسات الضمان الإجتماعى ، وخط الفقر الذى تحدده المجتمعات . . والذى يتباين بشدة فى البلاد المختلفة .

سيقرأ الفتى - بعد بعثته بسنوات ، ومن قبيل التناقض الذى يحدث فى هذا العالم - أن بعض الناس فى البلاد الغربية ، عندما تموت كلابهم أو قططهم ، يلجأون إلى خدمات هيئات متخصصة فى تحنيط الحيوانات والطيور الأليفة . . . ويحتفظون بها فى منازلهم بعد تحنيطها . . ويضعونها فى مكان بارز عزيز . . .

ويكلمـونها ويدللونـها كما كانوا يفـعلون عندما كـانت حية . . . قالت إحدى النـساء معلقة على كـلبها المحنط الذى تحتـفظ به فى بيتها : إنه ينظر إلىّ . . أحس أنه معى . . إنه لم يمت !!

إنهم يـعشقون هـذه الحيوانات الأليـفة . . . دعى الفـتى مرة زميله الأمـريكى الذى كان يسكن مـعه فى نفس البيت فـى المدينة التى تـقع فـى الجـامعـة ، لـيزوره فـى مـنزل أهله فـى مـديـنة مجـاورة . . . ورأى الـفتى فـى هـذا الـبيـت صنـوفا مـن الحيوانات . . . رأى تمساحا صغيرا فى حوض مائى . . . وأقبلت عليه أخت زميله لتريه فأرها المدلل الذى تحتفظ به فى جيبها . . . والجينى بج الذى يقبع فى قفص صغير . . . هذا طبعا إلى جانب الكلب ، والذى يحتل مكانة مميزه بالبيت .

يقـول المـثل الأمريـكى : إن الـكلـب هـو أحـسن صـديق للإنسان . . . مخـلص تابع وفى ، يدافع عن صاحـبه ويذود عنه ولا يرضى عن صحبته بديـلا ، وهو الحارس الأمين الذى لايغفل عن حراسة ما يكلفه به صاحبه . . . كما نقرأ فى كليلة ودمنة عن ذلك الكلب الذى راح ضحية الواجـب ، إذ قتله صاحبه - عندما رأى فمه مـلطخا بـالدم - ظانا أنـه ألحق بابنـه أذى ، بينمـا كان الكلب يدافع عن الولد ، فقتل الثعبان الذى كان يهاجمه . . .

لذلك فإن الشاعر العربى القديم ، عندما أراد أن يمدح الرجل ، شبهه بالكلب - فى حفظ الوداد ... وكان هذا قبل أن يهذب الشاعر سلوكه العفوى ، ويرقق شعوره ، ويوجه ملكته الشعرية حسبما يقضى الذوق السليم .

ولاغرو أن كثيرا من الهيئات والجمعيات تقوم لحماية الحيوانات المنزلية وغيرها ... حتى الحيوانات البرية المتوحشة ، تنادى مثل هذه الهيئات بعدم اقتناصها .. حتى لاتنقرض ، ويفقدها الناس ، ويذهب جمالها ، وتخلو منها البيئة المحيطة ... ولكن ... ماذا عن الآدميين الذين يتضورون جوعا ، أو يموتون ، أو يقتلون ، فى أماكن كثيرة من العالم ، وخاصة ما يسمونه بالعالم الثالث !



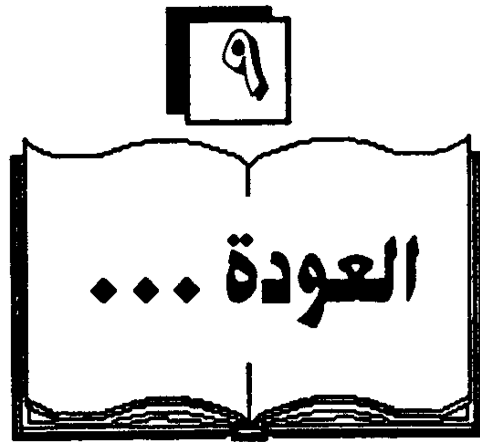
كان الفتى ينظر فيما حوله ، ويتأمل ، ويثير فى عقله أسئلة كثيرة .. يجد عن بعضها إجابات ، ولايجد عن البعض الآخر ... كان يحب البيئة التى يعيش فيها ... ينفعل بمشكلاتها .. يتأقلم معها ... وكانت الجامعة تنظم ندوات .. وتستضيف محاضرين متخصصين فى الموضوعات التى تثير إهتمام الناس .. وكانت تعقد مناظرات بين الخبراء بشأن هذه

الموضوعات . . . كما كان بالجامعة ناد دولى يلتقى دوريا ، يجتمع فيه الطلاب والأساتذة ، أمريكيين وأجانب من كافة أنحاء العالم .

وكان الفتى نفسه أحد المتحدثين . . فقد استضافه النادى الدولى وبعض المدارس ليتحدث عن بلده مصر . ومرة دعته إحدى الكليات المجاورة ليتكلم - فى ندوة عن الأديان - عن بعض مبادئ الإسلام ، ليس باعتباره فقيها فى الدين أو باحثا فى علومه ، ولكن باعتباره فردا مسلما عاديا . كانت جلسة حية . . حافلة بالأسئلة والأجوبة والنقاش . إن كثيرا من جوانب الإسلام لايعلمها الناس ، ويريدون أن يعرفوها .

كما دعى مرة ليلقى محاضرات - فى موضوع تخصصه هذه المرة - على مجموعة من الطلبة فى دير كاثوليكى . . . وكانت هذه أول مرة يدخل ديرا . . . وكان القسس الشبان يعيشون فى هذا الدير الذى كان لهم منزلا ومعبدا ومعهدا . . . وكانوا ينتظمون فى الفصل إذا جاء الفتى ، يستمعون إليه ويسألونه ويناقشونه . وأعجب القسيسون بالفتى ، وأقبلوا عليه وعبروا له عن شكرهم وإمتنانهم . وكان أحد هؤلاء القسيسين متخصصا فى قراءة خط اليد . فطلب من الفتى أن يكتب له فقره أو فقرتين

بخط يـده ، حتى يحـلله... ففـعل الفتـى .. وكتب له الـقس كلاما كثـيرا عن شخصيته ... كـان معظمه إيجابيـا مشرقا ... وذكر أن الفـتى يحب العلـم ، تواق له ، باحث عـنه ... وأنه شخص مشحون بالعواطف ، تؤثر فيه المواقف الإنسانية إلى درجة الدموع . مازال الفتى يحتفظ بهذه الكـلمات الرقيقة التى كتبها له القسيس .



وطنى لو شغلت بالخلد عنه

نازعتنى إليه فى الخلد نفسى



خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

والآن ... لم يبق سوى الرحيل مرة أخرى ... العودة إلى مصـر ، الوطن الغـالى ، الذى يعـيش فى وجدان الـفتى وقلـبه وفـكـره ... حان الآن وقـت رد الجمـيل ... لـلأبويـن .. للإخوة .. للناس المصريين .. طلاب العلم .

كانت سنوات جميلة فعلا تلك الـتى قضاها الفتى فى بعثته . كانت ملـيئة بالتحـصيل ، وتلقى العـلم والمعرفة . كانـت خصبة بالنـاس الذين صادفهـم ... الشخصـيات الثريـة المتنوعـة التى قابلها . كان الفتى محظوظا بإقـامته فى مدينة صغيرة ، توجد بها جامعة كـبيرة وكلية صـغيرة مشهورة . فـأما الجامعة فكـانت تمتلأ بالطلاب من الجنسين ، وتضم الأمريكان إلى جانب خليط لا بأس به مـن الأجانـب . وأما الكـليـة فكانـت للأولاد .. وهـى من الكليات الخاصـة ، باهظة التكاليف ، لايرتادهـا إلا أبناء القادرين والأغنياء من صفوة طبقات المجتمع .

كانت المديـنة كلها فى الحقيـقة عبارة عن جامعة ... فـأينما ذهبـت تجـد طـلابا .. وأينـمـا إتجـهـت تجد أسـاتذه وعامـلين بالجامعة ... وأى مـكان قصدت تجد أناسا لهم صلـة بالجامعة . كما كانت المنطقة المحيطة كلها تعج بالكليات الصغيرة والخاصة .. التى تقـبل الطلاب بمصاريف مـرتفعة . وفى مقابـل كلية الأولاد

الخاصة كانت توجد ثلاث كليات أخرى خاصة للبنات . . . كذلك كانت هناك جامعات وكليات أخرى مملـوكة للولاية ، تقل تكاليفها عشرات المرات ، وتقبل الطلاب من الجنسين . . . كما كانت هناك كليـات تابعة لـلكنيســة تمولها وتديـرها . . . وكانت كـل من هذه الجامعات والـكليات تقيم حفـلات وأنشطة اجتماعيـة فى الأعياد والمناسبات تستضيف فيها طلاب الكليات الأخرى . . .

أحــب الفتــى مدينتــه الصغـيرة التى عـاش فيها زهـاء ست سنوات . كانـت مدينة جميـلة بسيطة ، تجـد فيها رائحة الـتاريخ القـــديم إلى جانـب الطراز الحديث . . . أمـا الطبيعـة فى هذه المدينة ، فـقد حباها الله منظـراً رائعًا . . . الشجر الكـثيف الذى يحيط بالمدينة طولا وعـرضا . . والذى يكون رائع الخضرة خلال الربـيع والصيـف . . ثم يتـحول فى الخـريف إلى ألوان صـفراء وحمراء إلى جانب الخضراء ، ذات درجات مـختلفة . . . فكأنك ترى لوحة ضخمة من الفن الرفيـع بدعتها يد الخالق القدير . فإذا هبت رياح الشتاء ، وهطلت الأمطار ، وسرت البرودة . . . بدأت أوراق الشجـر تتساقط عـلى الأرض تفرشهـا ببساط طرى مـتعدد الألوان .

فإذا جاء فصل الـشتاء بدت هذه الأشجار عاريـة ، شاحبة ،

حزينة ، يخيل إليك من سحر المنظر أنها تبكى ، فتسرى فى جسدك قشعريرة . . . فإذا سقطت الثلوج ، اكتست الأشجار بلون ناصع البياض . . وكأن بساطا أبيض ساحرا انتشر ليغطى كل مكان . . . الجو بارد . . . ولكنك تشعر بانتعاش ونشاط . . . الجو نقى ، صاف . . . وكأن الأشجار والبيوت والشوارع . . . وكل شيء يغتسل ، ينفض عنه أدرانه . . . آه لو كانت النفوس والقلوب أيضًا تغتسل . . من ذنوبها ، وضغائنها وأحقادها وتحيزاتها . . . فتصبح فى صفاء هذا الجو البديع .

كان الفتى يخاف من البرد عندما كان يعيش فى وطنه قبل البعثة . . وكان يستعد كل شتاء ليصاب بزكام . . كان ينتظره ، يستدعيه ، يستقبله . . . ضيف ثقيل لم يجد من صحبته بدا . وكان يحب الربيع والصيف . . حيث الإنطلاق ، والهواء ، والنيل الحبيب . أما فى مدينته الأمريكية ، فقد أحب الشتاء أيضًا إلى جانب الصيف . . كان ينظر بعمق إلى الفضاء العريض ، ويتأمل الجليد وهو يتساقط ، قليلا فى أول الأمر ، كشعيرات القطن الصغيرة ، بعضها يذوب قبل أن يلامس الأرض ، وبعضها يستقر صحيحا . . . ثم يتراكم ويتراكب . . . فيغطى الأرض ، والبيوت ، والشجر ، والجبال . . . ويهرع رجال البلديات

بسياراتهم وأدواتهم ومنظفاتهم ... يزيحون الجليد من الطرقات ، حتى يستطيع الناس أن يمشوا ، والسيارات أن تسير ... ويلقونه على الجوانب وفى المساحات الخالية .

أما الجبال فتكتسى تمامًا بالجليد ، الذى يظل لونه ناصعا متلألأ ، ثم ينتشر عليه الهواء البارد فيجمده ، تمهيدًا لاستقبال الرياضيين وهواة التزلج ... فيهرع هؤلاء - رجالا ونساء وأطفالا - إلى أدواتهم المختلفة ، وملابسهم الثقيلة ، ويقصدون الجبال - القريبة والبعيدة ، المنخفضة والشاهقة - سعداء فرحين ، يفتحون أذرعهم وصدورهم وقلوبهم للطبيعة الخلابة ، غير مبالين بالبرد ... يتزلقون على الجليد - يضحكون ويمرحون ويصرخون ... وكأن الجليد بساط سحرى ، لايطير على الهواء ، ولكن يسرى على الجبال ... يقذفهم من قمة الجبل إلى قاعدته ... ويأخذهم يمنة ويسرة وفى كل إتجاه ...

بعض الناس يقضون تمرينهم سالمين ، والبعض الآخر تزل أقدامهم ... فتنكسر .. وتوضع فى الجبس أسابيع .... وكان شيئًا عاديا أن ترى فى الجامعة طول فصل الشتاء طلابا من الجنسين ، يتوكأ الواحد منهم على عكاز أو إثنين ، يمشى بصعوبة .. أو يجر رجلا ويقفز بالأخرى ... والطريف أن

أصدقاء هؤلاء الطلاب يكتبون لهم على الجبس الذى يحوط السيقان ، كلمات تعكس كثيراً من ثقافة هذا الشعب وطريقة حياته ... كانت هذه الكلمات خليطا من التمنيات بالشفاء ، إلى التندر بما حدث ، وتأكيد الصداقة أو الحب ، والنكتة السريعة ، والتعليق الذكى ، إلى توقيع الأسماء ، وذكر مكان الحادث وزمانه ...

كانت هذه الكلمات بما فيها من عفوية ومرح وبساطة - وأحيانا ما فيها من أخطاء لغوية وهجائية - تذكر الفتى بتلك الرسائل القصيرة التى كان يكتبها الأصدقاء فى مصر لبعضهم عندما يزورونهم فلا يجدونهم ... فيتركون لهم كلمات .. كانت تعكس درجة الود بين هؤلاء الأصدقاء ، « وخفة الدم » التى يعبرون بها عن هذا الود .. يبدو أن للشباب - فى أنحاء العالم - طابعا معينا ، يتقاسمون بعض خصائصه حتى وإن إختلفت أوطانهم وأجناسهم ومشاربهم ...

كما كانت هذه الكلمات تذكره أيضًا بما كان يقرأه على الشاحنات - الكبيرة والصغيرة - التى تجوب شوارع مصر ، فى مدنها وقراها ... إنك تقرأ على هذه الشاحنات عجبا ... فمن الأمثال والحكم القديمة .. إلى مطالع أغنيات ومواويل .. إلى

أنصـاف بيوت مـن الشعـر . . . كما أن بـعض الحكـم المكتـوبة لاتخرج عن كونها من أفكار كاتـبها ، والذى لم يكن الفتى يدرى هل هو صاحب الـسيارة ، أم سائقها ، أم عامـل الدوكو ، الذى أبدع هذه الأفكار . . .

كذلك فإن كثـيراً - إن لم يكن معظم الكتـابات - يهدف إلى درء الحسـد ، والشك فى الآخرين ، وإتهامهم بنية الحسد ، وتمنى زوال النعمة - التى هى اللورى فى هذه الحال . . . أكثرها إنتشارا مثلا عـبارة : يا ناس يـا شر ، كفايـة قر . . . لاحظ ما فـى هذا القول مـن تعميـم قاس ، وظلم لـكل من تقـع عيناه عـلى هذه الشاحنـة . . . وغالبا لايكتفـى كاتب هذه العبارة بـذلك ، ولكن يرســـم إلى جـــوارها عينا ، لابـد أنها عينـك التى تبحـلق فى شاحنته ، ويرشق فى هذه العين سهما طائشا . . هو الذى سيبطل مفعـول الحسد ، ويفـسد على الحاسـد نيته !! وقد تـنبه بعـضهم مؤخرا لقسوة هذا القول ، فاستبدله بعكسه : ياناس يا عسل . . . فلان وصل . . . ياناس يا فل . . الخير للكل . . .

وكانت تثير الفتى أيضًا عبارة « ما تبصليش بعين رضية (وهنا ينقلب المعـنى تمامًا ، فكاتب العبارة يقـصد رديئة ، أى حاسدة أو غير طيبة النوايا ، وليست راضية بالتأكيد) وهى فى ذلك تشبه ما

يقولـه العامة مـن « العمل الـرضى » ، ويقصـدون الردئ . . . ولكنهم يحـولون الدال إلى ضاد . . . كما يقلب كـثير من الناس الصاد سينا ، والقاف كافا ، والتاء طاء . . . . . !!

كان يحزن الفتى كثيراً أن يتكـلم رجال ونساء بهذه الطريقة - وبعض هـؤلاء ذوو مراكز وعمـرهم كبيـر . . . ولايدرى إن كان الخطأ من جانبهم ، أو هو التقصير الذى وقع فيه مدرسوهم ، أو بسبب طريقة التعليم ، أو وسائل الإعلام التى يظهر فيها أشخاص يتكلمون العربية بطريقة عجيبة ، وكأنهم غرباء عنها أو كأنها غريبة عنهم . . . إن إتقان اللغة جزء من شخصية الفرد ، والإعتزاز بها جزء من هويته الإجتماعية والوطنية .

لقد إستلم الفـتى عندما كان يعد رسالة الدكتـوراه ، تعليمات وتوجيـهات كثيرة عـــن كتابـة الرســالـة ، من ضمنهـا الجوانب اللغوية . وكانت هذه التعليـمات توزع على الأمريكيين والأجانب سويا . وكان بها تـنبيه هام . . بأنه لن يسمـح بأى خطأ لغوى - فى الـنحو أو الهـجاء فى الـرسالة . . ويـجوز رفض الرسـالة أو تأجيلها إذا كانت هناك مثل هذه الأخطاء .

ليـت جـامعاتنا تنبـه لذلك . . وليـــت باحثينا يتنـبهون له أيضًا . . . وإذا لم يستطع الباحثون أن يكـتبوا لغة عربية سليمة ،

أو إذا كانوا قد نسوا قواعدها (وهذا ما لايصح أبدا) فلا أقل من أن يسندوا أمر مراجعتها لأحد المتخصصين يصحح ما بها من أخطاء .. إن العمل البحثى كل متكامل ، واللغة أداة للتعبير .. فيجب أن يتقن الباحث التعبير ، حتى تصل رسالته إلى القارئ كما يعنيها هو ، وبالمعنى الذى يحرص أن تصل به ... لقد سعد الفتى كثيراً حين قال له أحد أعضاء لجنة مناقشة رسالته للدكتوراه ، وكان أستاذا قديراً متمكنا من ناصية لغته : أنا قارئ متشدد ، تهمنى سلامة اللغة ، وربما تضايق منى كثيرون لذلك .. ولكنى عندما قرأت رسالتك ، لم أجد بى حاجة لتصحيحها .



أحب الفتى مدينته التى عاش فيها سنوات بعثته ... وكان يجد فى حسن الطبيعة بها ما يسر خاطره ويبهج نفسه المتطلعة دائمًا للجمال .. كما كان يثير إعجابه التغير الشديد فى حالة المناخ ... تبارك الله .. فمن صفاء الجو والشمس الساطعة ، إلى ركام السحاب يغطى السماء .. والأمطار الخفيفة حينا والغزيرة أحيانا .. والبرق والرعد ... ثم الجليد إذا كانت الشتاء ... وربما استمرت الأمطار والثلوج أياما ، أو أسبوعا ، أو أكثر

قليلاً . . . ولكن الحياة لم تكن تتعطل بسبب تغيرات الجو ، إلا في حال العواصف الجليدية الشديدة . . . فإذا بلغت الثلوج ارتفاعا معينا تعذر على الناس ركوب سياراتهم ، أو السير على الأقدام . . . فتغلق المدارس أولا ، وتتعطل بعض المصالح . . . أما في تقلبات المناخ العادية ، فإن الحياة تسير في نهجها المعتاد . . . ربما ينخفض إيقاعها السريع قليلاً . . . ولكنها ماضية ، متقدمة ، الناس يذهبون إلى أشغالهم يعملون . . ثم ينفضون إلى بيوتهم يستريحون . . ثم يقصدون أماكن اللهو يلعبون . . .

حدث مرة عندما كثر الجليد واشتد البرد ، أن تجمدت كفا إحدى جارات الفتى . . . وجاءه زوجها يسعى - بعد منتصف الليل في ليلة قارسة البرودة . . . يرجو الفتى أن يأخذه وزوجه في سيارته لأقرب مستشفى ، حيث أن سيارة الزوج لم تدر من شدة البرد . . . ولاغرابة في هذا . . . فقد كان جميع الطلاب بالجامعة يركبون سيارات مستعملة ، « نصف عمر » ، لضيق ذات اليد ، ولرخص هذا النوع من السيارات . . وكان بعض هذه السيارات يسير . . والبعض الآخر يتوقف . . . والبعض الثالث يتلف ويكف عن الدوران تمامًا . . .

هرع الفتى إلى سيارته .. ولحن الحظ دارت .. فأخذ الزوجين ومضى ... كان الليل يتوغل ... وكان البرد لايحتمل ... والمرأة تشكو من كفيها المتيبستين، المعرضتين للكسر والسقوط ... كانت أقرب مستشفى فى مدينة مجاورة ... أسرع الثلاثة إلى باب استقبال الطوارئ ... كان الموظف يجلس إلى مكتبه هادئًا ... لاتبدو عليه علامات الإنزعاج ... مد للزوج يده بورقة طلب منه ملأها ... أسرع الزوج يكتب البيانات المطلوبة ... وكان من ضمن أسئلة الورقة : هل لديكم طبيب للعائلة ؟ أى هل ترددون بصفة منتظمة على طبيب ؟ فأجاب الجار نعم ... وعندما قرأ الموظف ذلك .. اعتذر عن قبول زوجه بالمستشفى ما دام هناك طبيب خاص بالعائلة ...

خرج الثلاثة مسرعين ، ركبوا السيارة مرة أخرى ... قصد الفتى إلى مدينة أخرى مجاورة ... تحدث الزوج عن سوء البيروقراطية ... وما تسببه من أضرار للناس .. إن الموظف البيروقراطى لايفرق بين حالة وأخرى .. إنه يتبع ما هو مكتوب .. يمشى بحرفيته ...

وصل الثلاثة إلى المستشفى الثانى ... دلفوا بسرعة ... وجدوا نفس المنظر ، موظفا لاتبدو على ملامحه أية

انفعالات . . . مد للزوج ورقة يملأ البيانات المطلوبة فيها . . . وعند السؤال الذى يسأل عن طبيب العائلة . . أجاب الزوج لا . . . قبلوا الزوجة . . أسعفوها . . . عاد الفتى بالزوجين مع أول خيط من صباح اليوم التالى . . .



اعتاد الفتى على مدينته . . . وإنخرط فى نمط الحياة السائد فيها . . . واعتاد الناس فى هذه المدينة أيضًا أن يروا الفتى . . . فهو يلتقى بأساتذته وزملائه فى الجامعة . . ويقابل أصحابه بعد ذلك فى أوقات الراحة . . وربما صادف جارا أو زميلا فى السوبر ماركت أو البنك أو عيادة طبيب . . . فتبادل معه حديثا سريعا .

قالت له إحدى زميلاته عندما علمت أنه سيعود إلى وطنه : إنها لاتتخيل هذه المدينة بدونه . وقد سر الفتى لذلك سرورًا شديدًا ، وشكر لها حسن تعبيرها ، ورقة شعورها ، وجميل توديعها . . .

لقد أصبح جزءا من بلده الجديد . . وأصبحت هذه المدينة الجميلة جزءًا منه أيضًا . . . وتكون بينه وبينها نوع من التآلف والحب . . . والهوية أيضًا . . وهو فى نفس الوقت يحب وطنه الأم . . مصر . . الوطن الكبير . . . وبدأ فى المرحلة الأخيرة

يشتاق إليها . . . للوالدين والإخوة . . . لأصدقائه الذين لايدرى أين يقيمــون الآن . . فى مصر أم تفرقوا فى الـبلاد . . . إتصل بالمعهد الدولى للتعليم ، الذى كان مشرفا على بعثته . . . واتصل بسفارة بلده . . . أبلغهم بعـزمه على العودة . . . هنؤه . . وتمنوا له التوفيق . .

بدأ الفتى يستـعد للسفر إلى مصر . . . لقد كان يـسيطر عليه شعور غريب فى الفترة القصيرة التى سبقت عودته . . . كان يريد العودة ، وفى نفـس الوقت كان يحب أمريكا . . . لـقد كان شابا صغيــرا عندما جـــاء إليها مـــن مصر . . . كانت هـــى أول بلد يزوره . . . عاش فيها أيام الشبـاب العزيزة . . وجد فيها ذاته . . تفتح فيها عقله . . وتكونت بها شـخصيته العلمية . . . إنه يشعر الآن شعور من يسـميه علم النفس بالإنـسان الحدى ، أو الحائر ، أى الذى يقف علـى الحدود ، بين خيارين صعبـين . . هو يحب وطنه وينتــمى إليه . . . وهو كذلك يحب بلده الجـديد وينغمس فيه . . إنه يريـد العودة ، ولكن البقاء هنـا أيضًا مغر . . . !! لماذا إذن رفض العـروض المقدمة لـه للبقـاء . . . لم يحاول دراسـتها ومقارنتها ؟

كانت هناك فرص كثيرة بعد حـصوله على الدكتوراه ، وحتى

قبل ذلك بقليل . . كان أحد أصدقائه يعمل فى جامعة بولاية مجاورة ، وأخبره أن هذه الجامعة بحاجة إلى أستاذ جديد فى تخصصه . . . وأخبره زميل آخر أن جامعة أخرى - فى ولاية بعيدة - يمكن أن تستفيد بخبرته ومجال تخصصه . كما أخبره أحد الأساتذة المشرفين على رسالته للدكتوراه ، أن بالرسالة موضوعات تصلح لأن يجرى فيها بحوثا ويكتب فيها مقالات مستقبلة ، وأبدى الأستاذ إستعداده - إذا قرر البقاء فى الولايات المتحدة - أن يشترك معه فى تلك البحوث والمقالات . وكان هذا العرض وحده كافيا لأن يجعل الفتى يبقى بأمريكا - فى نفس الولاية أو ولاية أخرى . وماذا يطمع أستاذ مبتدأ فى أكثر من أن يقترن إسمه باسم أستاذ قديم ، مشهور ، له كتب ومؤلفات عديدة ، يحترمه الكثيرون ، ويقرأون بحوثه فى كافة الجامعات الأمريكية ، بل أيضًا فى العالم ؟ وحتى خارج الجامعة . . إقترح على الفتى أصدقاؤه الأمريكان أن يبقى . . فهناك فرص عمل كثيرة ، تنتظر من هم فى مثل علمه وثقافته .

استمع الفتى لكل هذه العروض والآراء . . . كان الإغراء شديداً . . . لقد أحب الفتى بيئته الأمريكية . . وربما أحس فى السنتين الأخيريتين لبعثته أنه واحد من الناس الذين يعيشون

هناك . . . تأمرك الفتى . . . أليس هذا شيئًا طبيعيا ؟ ألا تطبع البيئة الأفراد الذين يعيشون فيها بطابعها ؟ فى إتجاهاتهم ، وقيمهم ، وعاداتهم ، وأنماط سلوكهم وعلاقاتهم مع الآخرين . . . وربما أيضًا ملامحهم وأجسامهم . . . وإن كان هذا يحدث بدرجات متفاوتة بين الناس - باختلاف الزمان ونوع المجتمعات . . . ولكن ربما كان الصغار والشباب - بشكل عام - أسرع تكيفا وإندماجا ، وأقرب للتغير والتأقلم فى المجتمعات التى يوجدون بها . . . والأمر لايرتبط بالعمر فى حد ذاته . . . بقدر ما يتعلق بالميول والأهداف والاتجاهات .

المهم أن الفتى تكيف تمامًا مع بيئته الأمريكية وتفاعل معها . . . المدينة ، الناس ، التعليم ، الأحداث الجارية . . . كل شىء . . لم تكن إقامته كلها رخاء وسعادة - كما نوه من قبل . . كانت هناك أيام شقاء أو مرض ، أو موت قريب أو صديق . . . لقد تألم كثيرًا عندما سمع عن موت أحد أخواله بصعيد مصر . . . لم يكن قد رآه منذ زمن بعيد . . . حتى قبل البعثة بسنين . . . كان الفتى وهو صبى صغير يكن لهذا الخال إعزازا شديدًا . . كان يحس نحوه بعاطفة غريبة - هى مزيج من الحب والإعجاب بصبر هذا الرجل وطيبته . . كان زاهدا فى الدنيا ، منصرفا عن مباهجها . . يقضى وقته فى الحقل الذى يملكه . .

يتأمل . . . يعـمل ما شاء الله له أن يعمل . . . يـقرأ صلواته . . يشرب الشاى الداكن الذى يفضله كـثير من الفلاحين - فى صعيد مصـر والوجه الـبحرى . . . كـان الناس يـحبون هـذا الخال . . يسلمون عليه ، ويسألونه الدعـاء لهم . . كانوا يحسبونه صالحا - والله حسيبه . وكان يسألهم هو بدوره الدعاء له . . . وكان الصبى يعجـب من ذلك عندمـا كان صغيرا . . . فـكيف يطلـب هو من الناس الدعـــاء ، وهم الذين بدأوه بالسؤال . . . ولـكن سبحان الله . . . ربما استجيبت دعوة لأحدهم فـنفعته فى دينه أو دنياه أو آخرته . . .

وسمع الفتى كذلك عن موت آخرين . . وتأثر لذلك كثيراً . وسأل الله تعالى لهـم الرحمة . لم يكن الفتى فى صـباه يفكر فى الموت . . . ولكـن عندما كان يمـر بخاطره أن أباه يمـكن أن يموت وهو فى البعثة بـعيد !! كان مجرد هذا التفكير يـرعبه ، يطرد عنه النـوم . . . لقد خـطر نفس الـشىء ببـال أبيه . . . وأوصـاه بألا يقطـع بعثته إذا سمـع بموته ، وإنما يجـب أن يستمر إلى أن يـنجز مهمته ثم يعود . . . كم يود الفتى أن يرى أباه مرة أخرى . . لقد أتم بفضل الله مهـمته . . . وأبوه حى يرزق . . فليـعد ، ليراه ، ويقبل يديه الكريمتين ، ويرد له ولأمه بعض الجميل .



ذهب الفتى إلى نيويورك ... وقصد مطار كيندى الدولى ، نفس المطار الذى وطأته قدماه لأول مرة منذ سنين .. قادما من مصر ... نفس الزحام وتسابق المسافرين - كل فى وجهة معينة ... ولكن صورة المطار اليوم مختلفة ... والمعنى ، الإحساس ، الذى يوجد فى نفسه مختلف أيضًا ...

كان خائفا بعض الشىء عندما جاء أول مرة ... واليوم يحس بشىء من الألم الذى يحدثه الفراق فى النفس ...

كان مقبلا على المجهول .. تمتلأ رأسه ونفسه بالأسئلة الغامضة التى لايجد لها إجابات محددة ... واليوم يترك مكانا أحبه ، وألفه ، ووجد فيه ذاته ...

كان مترددا غريبا صغيرا ... واليوم كبر قليلاً ، وأحس أنه ليس بغريب .. إنه إبن البيت ...

كان يتكلم اللغة الجديدة على إستحياء ... واليوم تجرى على لسانه طيعة لينة تلقائية ...

كان قلبه مفعما بآمال كبيرة ... حققها بفضل الله .. واليوم تحدوه آمال أخرى كبار ...

كان وحيدا ، إلا من زميله الذى جاء معه ... واليوم يسافر أيضًا وحيداً ...

ركب الطائرة . . . ابتلعه الطائر الضخم . . ها هو يترك أمريكا . . البلد الذى أحبه ، وترك فى نفسه أثرا كبيرا ، والذى عاش فيه سنوات هى جزء من شخصيته ، كيانه ، حياته . . . الطائر يحلق فى السماء . . يأخذه بعيدا . . . البيوت والأشجار والجبال . . . تصغر ، تبتعد ، تتلاشى . . . هل يا ترى سيجئ هنا مرة أخرى ؟ لقد أحس فجأة بالتعب . . . كان يجرى خلال السنوات السابقة ، فى سباق التحصيل والإنجاز . . . إنه الآن يرغب فى الراحة قليلاً . . . الطائرة تبتعد به أكثر وأكثر . . . وداعا أمريكا . . ومرحبا مصر .

وصل الفتى إلى روما . . . نفس المسار الجوى القديم . . . سبحان الله . . . أصبحت رحلته إلى أمريكا تاريخا قديمًا الآن . . . أحس بوحشة شديدة عندما هبط إلى مطار روما . . وكأنه أمريكى يهبط إلى بلد أجنبى . كان عليه أن ينتظر ساعتين أو أكثر قليلاً ، حتى يركب الطائرة التالية إلى القاهرة . . . بدأ يتجول فى المطار . . يتفرس فى وجوه الناس . . لمح فتاة أمريكية مسافرة ، وكأنه عثر على صديق . . . أنفق الوقت يتحدث معها . . . حان موعد طائرته . . أخذ مقعده . . . ونظر من النافذة ، وسرح بفكره بعيداً . . وسرت فى جسده قشعريرة غريبة . . .

حط الطائر الضخم على أرض المطار ... إنها القاهرة .. مصر ... أخذ الفتى نفسا عميقا .. أى ريح طيبة تهب عليه ... ألقى نظرة سريعة على المطار . وكأنه يستفسر منه عن مصر .. أراد فى هذه النظرة أن يستوعب كل شيء ... كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل .. خرج إلى الشارع ... حيث القاهرة ، الحية ، الساحرة الساهرة ... أخذ تاكسيا .. سأله السائق : أى طريق تريد أن تسلكه ! لم يدر الفتى أى طريق .. أخبره عن وجهته فقط ... مضى التاكسى مسرعا .. والفتى يتلفت يمنة ويسرة ... لايريد أن يفوته شيء ... حاول أن يتذكر الأشياء من حوله ... لايكاد يتبين شيئًا ... كان الليل ينشر أستاره ويخفى أسراره ...

وصل التاكسى إلى البيت ... نعم هذا هو البيت ... لم يتغير ... نظر إليه الفتى بإمعان ... وكأنه يستفسر منه عن أحوال من بالداخل ! كان يلف المكان سكون شامل ... إنها الساعة الثانية ... صعد الفتى السلم بسرعة ... ها هو الباب ، عليه اسم أبيه ... طرق الباب مترددا . وكأنه غريب .. ودقات قلبه تعلو وتتابع ... دق الباب مرة أخرى ... وبعد لحظات جاءه صوت أمه تسأل من بالباب ؟

ما أجمل هــذا الصوت . . وأعمقه وأطيـبه . . . إنه صوت أمه . . صوت بـلده . . صدى مصر الحبيبة . . . لقـد أعاد هذا الصوت للفتى ذكريات سـنين طويلة . . . لك الله أيتها الأم . . . كانت مثالا يحتذى فى الحب والبذل والعطاء . . .

لم تكن فقط ترعى أولادها . . وإنما كانـت تحتويهم بقلبها ، وعقلها ، وجميع جوارحها . كانـت تسهر على راحتهم . . تلبى طلباتهم . . تسعد بنموهم . . تتألم لمرضهم . . تفرح لنجاحهم . ورغم أنـها لم تتـردد على مدارس ولـم تختـلف على أسـاتذة أو تحصل على شهـادات ، إلا أنها كانت تقدر قيمة العلـم بفطرتها ، كانت تحـبه لحب زوجهـا له . كانت تسـاعد أولادها فى تحـصيل العلـم . . تسهر معهـم إذا سهروا للمـذاكرة ، تقدم لهم الـطعام والشراب ، تـوقـظ النـائم فـى ســاعة معـينة يحـــددها لـها ، وتنصح هـذا بأن يأخذ قسطـا من الراحة أو النوم ، وتـذكر هذا بمواعيده . . .

كانت امرأة قوية ، يعـتمد عليها . . كانت تنفق وقـتها ومالها وصحـتها ، فـى سبيـل زوجها وعـيالـها . ربما لـم يتنـبه الفـتى لتضحيات هـذه الأم عندما كان صغيرا . كان هو واخـوته ينهلون من مـعين حنانها وعـطائها الذى لاينـضـــب . . . اعتـادوا على

ذلك . . . ضمنوا أنهم يحصلون على هذا الحنان والرعاية المستمرة . فمنذ أن تفتحت أعينهم ، والأم تقوم بدورها العظيم . كانوا يأكلون الطعام الذى تعده ، ويلبسون الملابس التى تغسلها وتنظفها وتصلح التالف وتخيط القديم منها . كانت اقتصادية عظيمة . . . تعيش بالموارد المتاحة . . تستغل كل ما يوجد من إمكانات - على قلتها أو كثرتها - كانت مهندسة تحول البيت إلى مصنع صغير . . موارده محدودة ولكن إنتاجه غزير . لم تكن تترك شيئًا إلا وجدت له استخداما . . تلمس تأثيرها فى كل ركن من أركان البيت . . . كل شىء نظيف مرتب بسيط ، يدلك على أن وراءه سيده نشطة ، مديرة ماهرة ، مخلصة ، محبة لزوجها وعيالها .

لم يكن الأطفال يتنبهون للدور الكبير الذى كانت أمهم تقوم به . . . نعم ، كثير من الأشياء لايدركها الإنسان إلا عندما يكبر ، وينضج ، ويفهم ما يدور حوله . فمثلا لهفة الأم عندما يغيب ابنها الصغير أو يتأخر عن موعد عودته إلى البيت . . حدث للفتى ذلك مرة عندما كان فى المدرسة الإعدادية . . . وجد جمهرة من التلاميذ يلهون بعد المدرسة ، فمكث معهم قليلا . . . وعندما عاد وجد أمه ترتجف ، شاحبة الوجه لغيابه . . . وبخته وقلبها يتمزق

خـوفـا عليه . . . أغـلظـت له الـقول ولسانهـا يلهج بـحمد الله لعودته .

تضايق الصبى من هذا الحنـان الزائد . . ولكن لو كان مكان أمــه ، مــاذا كـان عساه أن يـفعل ؟ لابـد أن تأخره عن عـودته للبـيت ، قد أعاد إلـى ذاكرة أمه حادثـا آخر حدث له وهـو طفل صغـير . . . فقد وجــد البـاب مفتـوحا مــرة ، فخـــرج إلى الطـريق . . . طفل فـى الثالـثة من عـمره ، لايعرف أيـن هو ، ولايكاد يـعبر عن نفـسه . . أين يذهــب ، هل يمشى يميـنا ! هل ينحرف يسارا ! أين البيت . . . اختــلط عليه الأمر . . . مشى هنا وهناك . . تاه الولد . . . تفقدته أمه فلم تجده . . . انفطر قلبها ، وذهبت نـفس الأب حسرات . . . الجمـيع يبحثـون . . . الوقت يمضــى . . أين الولد ؟ هـل خطفه أحـد ؟ هل أصابه مـكروه ؟ ظلت الأم تـبكى . . . وجدوه أخـيرا ، بعد أن إنـحسر النـهار . وجده أحد الجـيران الأعزاء ، الأمناء . . جـاء به مسرعـا إلى أمه وأبيــه . إنهار الأبوان . . عـقدت الفرحـة لسانـيهما . . . هـاهو وليدهما ، وحيدهما فى ذلك الوقت . . يعود مرة أخرى .

الأطفال لايدركون مـا يسببون لآبائهم وأمـهاتهم من آلام . . يتضايقون عندما يكبرون قليلاً ، من شدة حنان الأم ، أو من كثرة

حـــرص الأب . ولكــن لابــد أن الآباء مدفــوعـــون إلــى ذلك بالحـب . . وربمـا لايملكون إلا أن يفعـلوا ذلك . فبعضـــهم رقيق الإحساس ، والـبعض ضعيـف ، لايحتملـون أن يصيب عيـالهم مكروه ، ولايطيقون حتى بعد أولادهــم عنهم . يقولون فى المثل الشعبـى : قلبى على ولـد انـفطر ، وقلب ولدى علـيه حجر !! نعم . . إن انفطـار قلوب الآباء شيء طبيعـى . . أليس أولادنا - كما قـــال الشاعـر - أكبادنا تمشـى على الأرض ؟ أنهـم جزء من الآباء ، إمتداد لهم . . .

ولكن الأولاد من جهــة أخرى : لهم شخصياتهم المـستقلة ، أهدافـــهم ، آراؤهم ، وجـهات نظـرهم فـى الحياة والأمــور من حولـــهم . . . ربما رأوا غـير ما يـرى آباؤهـــم ، وإتجهوا إتجـاهات مختلـفة . . فربما فضل ابن الطـبيب ألا يكون طبيـبا كوالده . . . وربما اتجه ابن المحامى إلى الهندسة . . . . صحيح أن الابن امتداد لأبيه ، ولكــن ليس ضروريا أن يـكون نسخة أخرى منه ، تكرارا له ، صورة قـد تكون باهـتة أو ضعيـفة إذا ضغط الأب عـليه أن يكون على شاكـلته . . . من شابه أبه فما ظلم ؟ نـعم ! ربما يقلد الإبن أباه ، فـى خلق قويم أو سـيرة حسنـة . ولكن يحـسن أن يكون مستقل الـتفكير متميز الشخصـية . فطن لذلك الأوائل . .

فينصح على ﷺ الآباء بأن يربوا أبنائهم على غير ماربواهم . لأنهم خلقوا لزمان غير زمانهم .. لذلك كان المثل الشعبى ، إن كبر ابنك خاويه .

فعلت أم الفتى ذلك عندما كبر عيالها .. لأنهم كانوا كل حياتها ، ومركز إهتمامها ... إحترمت شخصياتهم ورغباتهم عندما كبروا ... ولكنها فى نفس الوقت لم تغفل عنهم لحظة ... كانت تراقبهم عن بعد .. تلبى طلباتهم قبل أن يعبروا عنها ، تحس بآلامهم قبل أن يصرحوا بها ، تشعر بأحاسيسهم ، تألم لآلامهم ، تفرح لسعادتهم ... تود لو استطاعت أن تساعدهم جميعا فى تحقيق أهدافهم ...

من بالباب ؟ صوت أمه يجئ من الداخل .. خيل للفتى أن الزمن قد توقف لحظة ... تداعت كل السنوات الماضية وتجمعت سريعا فى هذه الدقيقة !! إنها أمه الغالية ... صوتها يتدفق حنانا ... ولكن لماذا هو ضعيف بعض الشيء ؟ هل هو بعد الإبن ؟ هل هو مرض الأب أثناء غياب إبنه ؟ هل هى وطأة الحياة ؟ هل هو التقدم فى العمر ؟ هل هو الحزن لفراق بعض الأحباب الذين ماتوا فى فترة غياب الإبن ؟ هل هو النوم الذى أيقظها طرق الباب منه ؟ هل هو النصب والإجهاد من شغل البيت

ورعاية الـزوج والأولاد ؟ نعم .. لقد أفنـت هذه السيدة الطـيبة حياتـها فى خدمة زوجـها وأبنائها .... وربمـا لم يقدموا لـها ما تستحق من جزاء ... وهل يستطـيع ابن فى العالم أن يكافئ أمه على مـا فعلت ؟ حـملته وهـنا على وهـن ... حملتـه كرها ، ووضعته كـرها ... ربته .. شاهدته وهـو يكبر أمام عيـنيها .. بكت لبكائه ، وسعدت لضحكه ، وفرحت للعبه ، وإنشرح قلبها لنموه ، وأثلج صدرها نجاحه ... ألم يوصينا النبى ﷺ بحسن صحابة الأم ، وبـأن يلزم الإنسان قدمها ، وأن الجـنة تحت أقدام الأمهات .

أنا يا أمى ... أجاب الفتى نـداء أمه ، وغصة فى حلقه .. كان يشفق عليها أن يصيبها مكروه من المفاجأة .. من شدة الفرح - وهى التى انتظرته طويلاً ...

كيف يا ترى قضت الأم هذه السنوات ؟ يذكر الفتى أنها كانت تبـكى قبـل فراقه بشـهور ... كانـت تنظـر إليه ملـيا ، وكأنـها لاتصدق أنه سيسافر ويتركها ... كانت تحـتويه بعينيها ، بقلبها ، تدعو له .. تبكى عندما تخلـو إلى نفسها ... ماذا فعلت بعد أن مضى ؟ لابد أنها بكت ، وتألمت ، ولـم تنم ليالى وأياما ...

يالقسوة الأبناء !! يتفرقـون هنا وهناك ... يتركون آباءهم ،

ينسلخون عنهم - كل فى طريقه ، ويتركونهم للوحدة والألم وكبر السن . . . ولكن لابد مما ليس منه بد . . هكذا الحياة . . . وماذا عسى الأبناء أن يفعلوا ؟ قطعا أنهم لايستطيعون أن يبقوا إلى جوار آبائهم . . ! ولايجب أن يفعلوا ذلك فيقعدوا عن السعى . . ولو فعلوا لإعترض الآباء . . . إن هؤلاء يريدون صالح أولادهم ، يحبون لهم السعادة والنجاح . . إنهم يدوسون على عواطفهم فى سبيل رفعة شأن أولادهم ، يكتمون رغبتهم فى بقاء أولادهم إلى جوارهم ، فيتركونهم يمضون ، بل يدفعونهم لذلك أو ينصحونهم بأن يسعوا إلى أرزاقهم وأمجادهم - لقد أوصى والد الفتى إبنه ألا يعطل بعثته إذا سمع بمرضه أو موته - ويبقى الآباء وحدهم بعد ذلك ، يسلمون أنفسهم للذكريات والأمل . . يجترون الأيام الحلوة الماضية . . . يعيشون على مخزون السعادة القديم . . يجددونه كل يوم ، ويستعيدون مشاهد منه - قصيرة أو طويلة - بين الحين والآخر . . .

أنا يا أماه . . . أجاب الفتى أمه . . وقلبه ينتفض بين جنبيه ، فرحا وإشفاقا على أمه من الفرحة العارمة . . .

أنا يا أمى . . ولدك الصغير ، المحب ، المطيع . . . الذى ربيته وعلمته وأدبته ، وغرست فيه مبادئك القويمة ، وقيمك

الراسخة .. والذى تعلم منك ومـن أبيه ، أثمن ما تعلم ، وعزز ورسخ ما تعلمه من المدارس والأساتذة والمربيين ...

لقد كان لـكل كلمة قلتـها له ، صدى فى قلبـه وعقله ... ولكـل تأديـب ورعاية لـه ، وقع طـيب فى نـفسـه .. وإن كان ساعتهـا قد تذمر من هذه الـرعاية وذلك التأديـب... إن كلامك محفور فى نفـسه .. وتوجيهاتك مطبوعـة فى صدره .. وحبك أنت وأبيه مخلوط بدمه الذى يجرى فى عروقه ...

أنا يـا أمى ... ولدك .. فـلذة كـبدك .. جاءك يـنوى أن يعـوضك عـن غيـابه الطـويل .. وإذا كـانت الأهـداف والآمال الكبيرة قد فرقت بينك وبينه ، فـإنك لم تغيبى لحظة عن خياله ، كمـا أنه لـم يغـب - بالـتأكـيد - لحـظـة عـن خيـالك وفـكرك ووجدانك . كانـت بينكما مسـافات شاسعة ومسـاحات واسعة ، ولكن حبه لك ، وحنانك الكبير وقلبك الرحيم .. كل ذلك كان يتجاوز المـسافات والمساحات ، ولايـتأثر بالزمان والمـكان .. حتى لكأنـه كان يسمعـك - على بعد - وأنـت تدعين له بالـنجاح .. وكأنه كان أيضًا يراك وأنت تبسطين يديك ضارعة لله العلى القدير أن يحفظه ويرعاه ويرده إليك سالما .

وفتحـت الأم الباب ... رأت الفتـى .. إبنها ، صغـيرها ،

أمامها مرة أخرى . . انهمرت الدمـوع من عينيها . . . عدت إليك يا أماه . . . ذاب الـولد فى حضـن أمه . . تحسـسته ، تأملـته ، ونظرت إليه مـليا . . من خلال دموعها . . مـن خلال حبها . . من خلال سنوات الفراق الطويـل . . . حمدا لله على سلامتك يا ولدى . . .

أوقظ الإخوة . . . هرعوا إلى أخيهم . . . الحب يرفرف على الأسرة . . إلتأم الـشمل . . اجتمع الأحبـاب مرة أخى . . . أين أبى يا أماه . . إنه نائم يا ولدى . . . إتركيه يا أماه ، لننتظر حتى الصباح . . . ليباركك الله أيتها الأم . ليباركك الله أيها الأب . . . أيها الأخوة الأحباب . . البيت الـكبير . . الأحضان الدافئة . . . ليباركك الله أيها الوطن الحبيب .